# ٣ ردود على أدونيس

**وردتْ قلمَ التحرير عدّةُ ردودٍ على مقالة الشّاعر والنّاقد الدكتور أدونيس التي نشرتها «الآداب» في العدد العاشر من السنة الماضية. وفيما يلي عيّنة من هذه الردود. ونحن إذ نفسح المجال أمام الجميع للتعبير عن آرائهم، فإننا نشدّد على أن تبقى في إطار الحوار الثقافي، بعيداً عن التجريح الشخصيّ والنعوت الغوغائية. ونحبّ الإشارة إلى أنّ المقالات الثلاث المنشورة هنا قد وردتنا قبل قرار اتحاد الكتّاب العرب في سوريا بفصل أدونيس منه.**

## ١ ـ المثقّف العربي: من الطّليعة إلى الفجيعة

**د. سامي سويدان(*)**

لعلّ أهمّ حَدَثَيْن عرفتهما المنطقة العربية في هذا العقد الأخير من القرن العشرين، ولاتزال مضاعفاتهما قائمة ومتفاقمة، هما «حرب الخليج الثانية» كما أُطلق على الحرب التي شنّتها القوّات الأميركيّة وحلفاؤها على العراق إثر اجتياحه للكويت في آب ١٩٩٠، و«اتفاق غزّة ـ أريحا أولاً» كما سمي الاتّفاق الذي تمّ التوصّل إليه عبر مفاوضات سريّة بين ممثّلين لمنظّمة التّحرير الفلسطينية والحكومة الإسرائيليّة في أوسلو في آب ١٩٩٣، عشيّة الجولة الحادية عشرة في واشنطن للمفاوضات العربيّة ـ الإسرائيليّة الّتي بدأت في مدريد منذ ١٩٩١/١٠/٣٠. ولقد اعتبرت «الحرب» ـ بما انتهت إليه من خسائر عراقية جسيمة بشرياً واقتصادياً وعسكرياً، ومن تعريض وحدة العراق للخطر وانتهاك أرضه وجوّه وتدمير منشآته الاستراتيجيّة وبناه التحتيّة ومتابعة حصاره وإضعافه، ومن تثبيت قواعد الهيمنة الأميركية في بلدان الخليج واستنزاف طاقاتها وثرواتها وزيادة تبعيتها للدول الرّأسمالية الغربيّة الكبرى وخاصّة الولايات المتّحدة الأميركية ـ كارثة عراقيّة وقوميّة عزّ نظيرها منذ ضياع فلسطين سنة ١٩٤٨. كما عُدَّ «الاتّفاق» ـ بما تضمّنه من إسقاط للحقوق الخاصّة بالفلسطينيين ومن تكريس شرعي لاحتلال الكيان الصهيوني لأرض فلسطين، ورهن الوجود الفلسطيني فيها لسلطته العنصرية، ومن تخلّ عن المقاومة والمقاومين للاحتلال الصهيوني في فلسطين وجنوب لبنان بشكل خاصّ، وتبنّ لوجهة نظر الإسرائيليين والأميركيين بشأنهما بل والتّعاون الأمني معهم في هذا الاتّجاه، وتطلّع إلى مدّ التعاون الالتحاقي إلى الميادين الاقتصاديّة والسّياسيّة، ومن تأمينه أفضل الشّروط والمبرّرات لتهافت أنظمة عربيّة على إقامة علاقات دبلوماسيّة مع «إسرائيل»، وعلى العمل الحثيث لوقف المقاطعة الاقتصاديّة والثّقافيّة لها ـ عدّ استسلاماً فلسطينيّاً وعربيّاً يتنكّر لمسيرة أجيال من المناضلين وللتضحيات الجسام التي بذلوها، على امتداد هذا القرن،

(*) ناقد أدبي من لبنان. صدرت له عن دار الآداب: **في النصّ الشعري العربي** (١٩٧٩)، **في دلالية القصص وشعريّة السرد** (١٩٩١)، **جدليّة الحوار في الثقافة والنقد** (١٩٩٥).

وخاصّة للمبادئ والقيم القوميّة والإنسانيّة الّتي كافحوا من أجلها. وقد ارتبط الحدثان في جملة من الوقائع والتداخلات والتطوّرات، حتّى ليمكن القول إنّ هذا الأخير (الاتّفاق) جاء نتيجة للأوّل (الحرب) ومكمّلاً له؛ وليس صدفة أن يكون المنتصر في الحرب هو الّذي يفرض شروط الاستسلام ويرعى إجراءاته ويضمن الانصياع لمقتضياته. ولم يكن هذان الحدثان مفاجأة غير متوقّعة، في ظلّ تطوّرات عالميّة عرفت منذ نهاية الثّمانينات انعطافات حادّة تمثّلت بشكل رئيس بانهيار الأنظمة الشّيوعيّة في الاتّحاد السّوفياتي وأوروبّا الشّرقيّة، وتضعضع اقتصاد هذه البلدان وتفكّكها، مع ما أدّى إليه ذلك كلّه من تفرّد الولايات المتّحدة الأميركية في التفوّق الاستراتيجي العسكري والزّعامة المهيمنة على العالم والقدرة على فرض ما يتلاءم مع مصالحها الاقتصاديّة والسّياسيّة دون عائق يذكر، وخاصّة من انتعاش متجدّد لليبراليّة رأسماليّة عاجزة عن إخفاء اصطناع الدّولة وأجهزتها لخدمة الاحتكارات الكبرى في عمليات النّهب والاستغلال والإبآس الاجتماعي الّتي تمارسها، بدءاً من الحماية الجمركيّة حتّى الاتّفاقات التجاريّة والالتزامات الإنشائيّة وصفقات التسلّح وصولاً إلى قوانين العمل والضمان والضّرائب والخدمات العامّة، في الوقت الّذي تعمّ فيه مبادئ اقتصاد السّوق وقيم الاستلاب السّلعي والرّبحيّة والاستهلاك.

ضمن هذه التطوّرات يتدعم اتّجاه غالب في مراكز السّيطرة الرّأسماليّة ينوط بالمثقّفين عامة دور الموظّف والمستخدم العامل في أجهزة الدّولة أو مؤسّسات الأبحاث والدّراسات الخاصّة الملتحقة بكبريات الشركات الماليّة والاقتصاديّة، أو دور التّابع المروّج للسياسات المقرّة والمتّبعة من قبل الحكومات لصالح هذه الشركات، أو دور التّقني البارع في أحد مجالات الاختصاص المختلفة. على أنّ أي دور معارض لهذه السّياسات يتوخّى نقدها وفضح منطقها وبيان سيرورتها يجد نفسه مطوّقاً بالتّهميش والعزل والتّجاهل في ظلّ هيمنة ساحقة للشّركات الاحتكاريّة الكبرى على وسائل الإعلام المختلفة، خاصّة على التلفزيون والصّحافة، التي تتجاوز في كلفتها التّقنية والماليّة ـ عدا الإمكانات البشريّة والشّروط القانونيّة ـ القدرات المحدودة لمثقّفين أفراد أو تجمّعات ثقافيّة مستقلّة. إذا كان هذا هو وضع المثقّفين إجمالاً في المراكز المذكورة، فإنّ وضعهم في الأطراف التّابعة والبلدان العربيّة منها، أكثر سوءاً وبؤساً. إذ يضاف إلى المعطيات العامّة الّتي تحكم أوضاع أولئك، معطيات خاصّة تفرضها الأنظمة السّياسيّة والاجتماعيّة التي يعيشون ويعملون في ظلّها... بدءاً من الافتقار إلى مصادر المعلومات والمعارف الحديثة، وصولاً إلى القمع الّذي يتعرّض له المعارضون في نشر إنتاجهم وتسويقه نظراً للعدد المحدود من الصحف والمجلاّت والدُّور الّتي تتولّى مثل هذه المهمّة، مروراً بالرقابة المتشدّدة في العديد من الدّول العربيّة حيث يتمّ إلى جانب مصادرات الكتب الحديثة النّشر منع تداول عدد من كتب التّراث، وبالدَّور الطّليعي أو الرّديف الّذي تمارسه هيئات وقوى دينيّة متزمّتة تفتي بالمنع حيناً أو بالملاحقة الجزائية حيناً آخر وبالقتل حيناً ثالثاً، وتجد في معظم الأحيان تواطؤاً من قبل أجهزة الدّولة، وقد تتّجه كما هو الحال في الجزائر اليوم إلى تطبيق قوانينها الظلاميّة مباشرة عن طريق أجهزتها العسكريّة الموازية لأجهزة الدّولة بالتصفية والاغتيال.

تشكّل هذه العوامل الإطار الذي يجد المثقّف العربي نفسه فيه حين ينهض لمواجهة اجتياح القوى الإمبرياليّة (الأميركية والحليفة لها) لبلاده والانهيار الّذي تدفعها إليه القوى المتواطئة معها والتّابعة لها والخادمة لمصالحها، أو للتّصدي لأنظمة الاستغلال والاستبداد والقمع، صنيعة تلك القوى الإمبرياليّة أو حليفتها وما يرتبط بها أو ينشأ عنها من مؤسّسات أو تيّارات إرهابيّة أصوليّة رجعيّة كانت أو فاشية مستحدثة، أو للتعبير الأصيل والمبتكر عن الرّغبات الإنسانيّة الأكثر عمقاً والتّجارب البشريّة الأكثر حميمية والحاجات الاجتماعيّة الأكثر إلحاحاً. لذلك لا يمكنه إلّا أن ينظر بكثير من الرّضى لتلك الفسحة من الحريّة الّتي تتيحها مجلّة **الآداب** ومثيلاتها على صفحاتها لمعالجة بعض القضايا الملحّة والحاسمة تاريخياً الّتي يعيشها الشّعب العربي ومثقّفوه.

* * *

إذاً كان الحدث الأوّل من الحدثين المشار إليهما أعلاه (حرب الخليج الثانية) لم يحظ من قبل المجلّة باهتمام يذكر(**)، فإنّ الحدث الثّاني (اتّفاق غزّة ـ أريحا أولاً) نال على العكس تماماً قسطاً وافراً من العناية والمتابعة، فلم يَخْلُ عدد منها منذ التّوقيع الرّسمي على الاتّفاق في واشنطن في ١٩٩٣/٩/١٣ حتّى اليوم من تعرّض له ونقاش بصدده

(**) تعليق هيئة تحرير «الآداب»: لم تُفرد «الآداب» عدداً خاصّاً بمجزرة الخليج الثانية، لكنّها خصّصت عدداً ممتازاً لأُدباء العراق في الحصار (وهو العدد الأخير من السنة الماضية وقد صدر بعد كتابة الزميل سامي لمقالته). كما لم يخلُ عددٌ ولا افتتاحية من شجبٍ قاسٍ للقمع الأمريكي والتّهاون العربي ونزعة المغامرة والإرهاب لدى النظام العراقي (راجع افتتاحيات أعداد «الآداب» التالية على وجه التخصيص: ٤ ــ ٥/ ١٩٩٢، ٦/١٩٩٢، ١/١٩٩٣، ٥/ ١٩٩٣، ٨ ــ ٩/١٩٩٤، ١١ ــ ١٢/١٩٩٤)، فضلاً عن مراجعة كتاب حرب الخليج لحليم بركات ٢/١٩٩٣، ومقدّمة لملفّ نعوم تشومسكي ٦/ ١٩٩٣، وكلّها بقلم مدير التحرير أو صاحب المجلّة، علاوةً على مقاطع كثيرة تعبّر عن آراء مماثلة بقلم الدكاترة فيصل درّاج وجمال الدين الخضّور وسامي سويدان نفسه! وبسبب موقف «الآداب» هذا، نالت عقاباً «يُذكر» من أنظمة الخليج وماتزال!

أو بشأن المضاعفات الناتجة عنه[1]. ومن الملاحظ أن تناولها له قد تمحور في الأعداد الثّلاثة (٦ - ١٠) حول مسألة «التّطبيع الثّقافي» مع العدو الإسرائيلي انطلاقاً من بيان الاحتجاج الذي وجهه الأمين العام للاتّحاد العام للأدباء والكتّاب العرب فخري قعوار إلى لجنة الشّعر في مهرجان جرش الثّقافي لدعوتها الشّاعر أدونيس إلى حضور المهرجان والمشاركة فيه، ومطالبته إيّاها بسحب هذه الدّعوة بحجّة إدلاء أدونيس بتصريحات لصحيفة **يديعوت أحرونوت** الإسرائيليّة، وكتابته في جريدة **القدس** (لندن) مقالاً يأخذ فيه على الولايات المتّحدة الأميركية تلكؤها في شنّ حربها على العراق، ومشاركته في غرناطة في لقاء ضمّ كتّاباً إسرائيليّين وهو ما يتنافى وتوَجُّهَ الأدباء والكتّاب العرب نحو مقاومة التّطبيع مع العدوّ الإسرائيلي.

أثار هذا الموقف ردود فعل مؤيّدة ومعارضة تناولتها الصّحف والمجلاّت العربيّة في حينه. وجاءت أعداد **الآداب** المذكورة لِتُثْبِت في الأوّل منها تقريراً نقدياً لمحمّد سعيد مضية يستعرض فيه مواقف الأطراف المختلفة من هذه المسألة كما قدمتها صحافة عمّان (الأردن) الثقافية، وإلى جانب التّقرير بيان ردّ أدونيس على رسالة فخري قعوار إلى «لجنة جرش» مشفوعاً بنصّ الكلمة التي ألقاها في «غرناطة»[2]؛ وفي الثّاني مقالاً للدكتور جمال الدّين الخضور ينتقد فيه كلمة أدونيس في غرناطة شاملاً في نقده مجموعة من الكتّاب العرب (مثل أميل حبيبي وفتحي غانم وسعد الدّين إبراهيم وعلي سالم...) الّذين يعتبرهم سائرين في خطّ الشّاعر ذاته[3]؛ ولتأتي في الثالث مجدّداً بـ «توضيح» لأدونيس يدافع فيه عن وجهة نظره ومواقفه ويعرض رؤيته الخاصّة لجملة من المسائل التي تداولها السّجال بشأنه[4].

---

(١) راجع الأعداد التّسعة الّتي صدرت من **الآداب** منذ أيلول - تشرين الأوّل ١٩٩٣ حتّى تشرين الأوّل ١٩٩٤، ومنها عدد خاصّ بالاتّفاق المذكور (أيلول - تشرين الأوّل ١٩٩٣) وعدد يتضمّن ملفّاً خاصّاً عنه (تشرين الأوّل ١٩٩٣) ومقالات عدّة في جميع الأعداد اللاّحقة دون استثناء تعالج بشكل خاصّ الأبعاد الثّقافيّة المتّصلة به والمواقف المختلفة بشأنها.

(٢) **الآداب** السّنة ٤٢، العدد ٦ و ٧: حزيران وتمّوز ١٩٩٤، ص ١٠٨ - ١١٠. ومن الجدير بالملاحظة هنا أنّ **الآداب** تعامل أدونيس معاملة متميّزة - أَلاَ أنّ «دار الآداب» هي الّتي تتولّى نشر أعماله؟ - ففي حين تنشر بيان ردّه على فخري قعوار لا تنشر بيان هذا الأخير أو رسالته موضوع الردّ! لعلّ تبرير ذلك بما ورد في تقرير محمّد سعيد مضية من تلخيص لهذه الرّسالة غير مقنع، لا لأنّ التّقرير المذكور لخّص كذلك بيان أدونيس، وإنما أيضاً لما يحتمل أن يكون قد ورد فيه من خطأ على الأقلّ بالنّسبة لما يذكر فيه من مطالبة قعوار بمنع أدونيس من دخول الأردن، وهذا ما ينفي قعوار حصوله («فخري قعوار الأمين الهادئ الملتزم: المثقّف العربي أريده الأخير الّذي يطابع» **النّهار** بيروت ١٩٩٤/٤/١٩) وللتحقّق أخيراً من دقّة الاستشهاد الوارد في بيان أدونيس عمّا ذكر فيه من «لقاء مع كتّاب إسرائيليين» نظراً للالتباس الّذي يثيره التّعبير ولاختلافه عن اقتباس آخر أكثر وضوحاً يشير إلى «لقاء ضمّ كتّاباً إسرائيليين» (علي حرب: «أولى باتّحادات الكتّاب مراجعة المواقف والنّقد» **النّهار** بيروت، ١٩٩٤/٣/٣١). من المؤسف كذلك ألاّ تنشر **الآداب** تعليقاً على كلمة أدونيس بيانَ «اللّجنة التحضيريّة لمناهضة الغزو الثّقافي الصهيوني في لبنان» عن لقاء غرناطة بين عدد من المثقّفين العرب والصهاينة (نشر في **السّفير** بيروت ١٩٩٤/١/٥ تحت عنوان «استنكار لقاء مثقّفين عرب مع صهاينة»، وفي كتيّب صادر عن اللّجنة التحضيريّة للمؤتمر الدّائم لمناهضة الغزو الثّقافي الصهيوني في لبنان ص ١٤ - ١٥)!

(٣) **الآداب** السّنة ٤٢، العدد ٨ و٩: آب وأيلول ١٩٩٤: «مجزرة الثّقافة من الإله «سين» وحتّى إله غرناطة» ص ١٤ - ٢٣.

(٤) **الآداب** السّنة ٤٢، العدد ١٠: تشرين الأوّل ١٩٩٤: «حول قضايانا الرّاهنة» ص ٣ - ٥. أغتنم الفرصة هنا لأشير إلى أنّ هيئة تحرير **الآداب** تتعامل أحياناً مع المقالات الّتي تنشرها بمزاجية ذات دلالة لا تخفى على تحيّزها؛ فقد أسقطتْ من مقالي المنشور في هذا العدد تحت عنوان «شعرية الالتباس/ مقاربة لأعمال إلياس خوري الرّوائيّة» هامشاً متعلّقاً بيمنى العيد، وأضافت من قبلها وبدون إشارة لذلك هامشاً (رقم ١ ص ٢١) متعلّقاً بأدونيس ومحمّد سعيد مضية!

**تعليق «الآداب» على هذا الهامش والهامش رقم٢: كان الأستاذ فخري قعوار قد وعدنا بإرسال وثائق بخصوص موضوع لقاء أدونيس بالصهاينة، وبخصوص المقابلة التي يقول خصومه إنّه أجراها مع صحيفة «يديعوت أحرنوت». لكنّ شيئاً من ذلك لم يصلنا ــ كما لاحظ سويدان نفسه في هامش رقم ٧ ــ ولا نزال نؤمّل أن يصلنا ذلك يوماً ما. ثم إنّ «الآداب» تفضّل أن تنشر ما يردها مباشرة، لكنّها تنشر ــ في الغالب ــ موضوعَ الخلاف حتى لو ورد على صفحات دوريّات أخرى تعميماً للفائدة ووضعاً للمقالة الناقدة في سياقها النقدي ليتسنّى للقارئ اتخاذ الموقف المناسب. ولا حاجة «للآداب» أن تشير إلى موقفها الواضح الرافض للتطبيع، وهي ليست بحاجة إلى الاستعانة ببيانات لجهات أخرى... ثم إنّ نشر أعمال أدونيس في «دار الآداب» لا علاقة له بـ«معاملة [المجلة] المتميّزة له» إنْ كانت مثل هذه العلاقة المتوهَّمة موجودة حقاً. فالدار نشرت «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، ودانت ــ في الوقت نفسه ــ موقفه من المثقفين الإسرائيليين (راجع «الآداب»، عدد ١١ ــ ١٢/ ١٩٩٤، ص ٣). وقد يأتي ردّ المجلّة على بعض المواقف بطريقة غير مباشرة، وخالية من التهجّم الشخصي، دون أن يَفقد هذا الردّ شيئاً من صداميّته ووضوحه (كما لاحظ كلّ من صبري حافظ، وعمر محمد الحاج، في هذا العدد في إطار تعليقهما على مقالة صاحب المجلة الواردة في العدد العاشر من السنة الماضية). إنّ «الآداب» تحرص، إذْ تؤكّد خطها المقاوم للتطبيع، على فسح المجال أمام المثقفين الآخرين (ولا سيّما حين يكونون في حجم الشاعر أدونيس) للإدلاء بدلوهم، إيماناً منها بحريّة التعبير وبأنّ عرض كلّ وجهات النظر هو أفضل طريق لمعرفة «الحقيقة». وأما إسقاط الهامش المتعلّق بيمنى العيد في مقالة د. سويدان، فلأنّ فيه شططاً وأذىً مفتعلاً؛ فقد اتهمها بأنّها تُسقط الفارق بين الوطني والعميل(!). وأما إضافة هامش متعلّق بأدونيس ومضيّة، فهي من حقّ (بل واجب) هيئة تحرير أيّة مجلة، تنويراً للقارئ وإعانةً له على العودة إلى مقالات تتعرّض لموضوع مماثل. وخطؤنا الوحيد أن كلمة («الآداب») سقطتْ سهواً من الهامش «المضاف».**

تكتسب آراء أدونيس، من كونه واحداً من أكبر الشّعراء العرب المعاصرين، أهميّة تتعدّى قيمتها الفكريّة الذاتية. فهي تحظى لدى العديد من المعجبين بشعره والمقدرين لإبداعه بالاهتمام والاستعداد المسبق لقبولها والأخذ بها، وهو ما لا تجده لو كانت صادرة عن شاعر أو أديب أقلّ شأناً أو مثقّف ليست له شهرته. ويجري تلقّيها عادة من

**أدونيس عيّنة من المثقّفين الذين يمثّلون ــ بغضّ النّظر عن ادعاءاتهم ــ وجهة نظر السلطات القائمة!**

هؤلاء المعجبين باعتبارها جزءاً من مسيرة كتابية جديدة تتميّز برؤية نقدية حادّة للأنظمة السّياسية والاجتماعيّة العربيّة وبإعادة نظر جذرية في المقدّمات والقواعد الفكرويّة الّتي تستند إليها. لذلك تعرف هذه الآراء وقعاً مميّزاً وصدى بعيداً لدى قرّائه ومتابعيه، وهذا يجعل تفحُّصها ومساءلتها ونقاشها أمراً يزيد من ضرورته وإلحاحه ارتباطها بجملة من القضايا المطروحة على المثقّفين العرب اليوم وتستدعي العديد من المساجلات الجارية بشأنها. إنّما ينبغي التّنبيه قبل البدء بذلك إلى أن تناول هذه الآراء يتمّ حتّى في أشدّ مواقعه احتداماً في إطار من النّقد الحواري، وهو نقد لا يقصد أدونيس بشخصه بقدر ما يتوجّه إليه هنا كعيّنة من تيّار واسع من المثقّفين الّذين، بغضّ النّظر عن ادعاءاتهم، يمثّلون وجهة نظر السّلطات القائمة ويعبّرون عن مصالحها وارتباطاتها المعادية لمصالح شعوبها، وتطلعاتها الأصيلة إلى الحريّة السّياسيّة والعدل الاجتماعي والكرامة الإنسانية[٥]. إنّ نقدنا هذا هو نقد لا يطمح إلى غير المساهمة في بلورة القضايا المطروحة على المثقّفين العرب في هذه المرحلة، عبر تحديد الملتبس وتوضيح الغامض في المواقف والأفكار، علّه بذلك يتيح تقدّماً في معالجة المسائل المتداولة، وبالتالي تحسيناً في الأوضاع الثّقافية والاجتماعيّة العربيّة. وهو في النّهاية يعبّر عن وجهة نظر غير معصومة عن الخطأ، علّ خطأها في حال وقوعه ألاّ يكون جسيماً، وعلّ الحوار الّذي تتوخّاه أن يسهم في تداركه، فهي تجد في الحوار باب معرفة وطريق تطوير، فعلّ رهانها لا يخسر وظنّها لا يخيب.

## المقاربة والمفارقة

لم يكن حضور أدونيس لقاء غرناطة ومن ثمّ الكلمة الّتي ألقاها فيه وحدهما موضع نقاش بينه وبين معارضيه؛ إذ إنّ المقال الّذي نشره بصدد «حرب الخليج الثانية» في جريدة **القدس** (لندن) وعنوانه «الصّلاة والسّيف أو الديمقراطيّة المتوحّشة»[٦] كان بدوره مدار سجال بين الطّرفين[٧]، ليحضر في هذا النّقاش والسّجال الحدثان الأبرزان اللّذان عرفتهما المنطقة العربيّة منذ أكثر من عقد، كما أشير

---

(٥) لا ينحصر هذا التيّار بأولئك الّذين حضروا مع أدونيس لقاء غرناطة من أمثال إميل حبيبي وبشارة عزمي [أو: عزمي بشارة؟ **الآداب**] والمتوكّل طه (فلسطين) ولطفي الخولي ومحمّد سيّد أحمد وبهجت النّادي وعادل رفعت (مصر) وعلي فرجاني (تونس) والطّاهر بن جلون (المغرب)... («استنكار لقاء مثقّفين عرب مع صهاينة» ذكر سابقاً) أو بأولئك الّذين يلتقون الإسرائيليين ويفاوضونهم في السرّ من أمثال محمود درويش الّذي التقى وزيرة التربية الإسرائيليّة شولاميت ألوني في روما في ١٩٩٣/٧/١٣ («مذكّرات محمود عبّاس (أبو مازن)... طريق أوسلو (٦)»، **الحياة** لندن ١٩٩٤/٩/١٩، ص ٧) وكان عضواً في «لجنة متابعة مفاوضات واشنطن، ومطلعاً بشكل عام على مفاوضات أوسلو (...) وكان حريصاً في النهاية على متابعة أوسلو وما بعدها وكان يحضّ محمود عبّاس على المثابرة...» («مذكّرات محمود عبّاس (أبو مازن)... طريق أوسلو (١٤)» **الحياة** لندن ١٩٩٤/٩/٢٧، ص ٧) إنّما يضمّ بين صفوفه أيضاً أولئك الّذين دافعوا عن مثل هذا التوجّه أو أيّدوه أو حذوا حذوه أمثال نعيم تكلا وفتحي غانم وسعد الدّين إبراهيم وعلي سالم... (د. جمال الدّين الخضور: «مجزرة الثّقافة: من الإله «سين» وحتّى إله غرناطة» ذكر سابقاً، ص ١٤).

(٦) «وجهة نظر في حرب الخليج: الصّلاة والسّيف أو الديمقراطيّة المتوحّشة» **القدس العربي** (لندن) السّنة الثّانية، العدد ٥٧٣ ـ ١١ آذار ١٩٩١.

(٧) من المؤسف أن تتضمّن رسالة فخري قعوار إلى لجنة مهرجان جرش قراءة مغلوطة لهذا المقال الّذي ليس فيه «تحريض على غزو العراق» (محمّد سعيد مضية: «أدونيس وغرناطة وعمّان» **الآداب** حزيران ـ تمّوز ١٩٩٤، ص ١٠٨) ولا يعبّر أدونيس فيه عن ضيقه «بسبب تلكّؤ الولايات المتّحدة الأميركيّة في شنّ الحرب على العراق»... («بيان من الشّاعر أدونيس» **الآداب** حزيران ـ تمّوز ١٩٩٤، ص ١٠٨) كما يدّعي قعوار وكما كرّر ذلك لاحقاً حين صرّح أن أدونيس «كتب مقالاً يعادي الولايات المتّحدة الأميركيّة لأنّها لم تضرب العراق قبل الموعد المحدّد لضربه لأنّها راعية حقوق الإنسان في العالم» («فخري قعوار الأمين الهادئ الملتزم: المثقّف العربي أريده الأخير الّذي يطابع» ذكر سابقاً). إنّ المقال خلافاً لذلك محاولة لفضح المنطق المتهافت للكتاب الغربيين ولتعرية حقيقة المواقف اللاّمبدئيّة لدولهم، إذ يدعون الدّفاع عن الدّيمقراطيّة في سعيهم لتمويه سياساتهم وتغطية أهدافهم، وهم لا يهتمّون بها ولا يعبأون بانتهاكاتها المأساوية مادام القائمون بهذه الانتهاكات يخدمون مصالحهم ويحقّقون مخطّطاتهم. ومن المحزن أن تحتوي الرّسالة المذكورة اتّهامات للشّاعر لا تستند إلى أي مستند أو وثيقة دامغة مقابل إنكاره لها، كما هو الأمر بالنّسبة لما ورد فيها من ادّعاء بأنّ أدونيس أدلى بتصريحات إلى الصحيفة الإسرائيليّة **يديعوت أحرونوت**؛ وبالرّغم من نفي الشّاعر القاطع لهذه الواقعة فإنّ بعض الأقلام لم تتورّع عن تأكيدها أنّ **يديعوت أحرونوت** قد نشرت مقابلة طويلة معه... (فاطمة سالم: «على هامش قضية أدونيس ـ جرش»... **اللّواء** (عمّان؟) ١٩٩٤/٤/٢٠). لكنّ هذا النّفي دفع بفخري قعوار إلى العودة إلى أرشيف الأمانة العامة للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب وتبيّن له أنّ التّصريح كان لصحيفة **معاريف** الإسرائيلية لا لـ **يديعوت أحرونوت**! وذهبت سدى محاولة د. سهيل إدريس للحصول على نسخة مصوّرة عن هذا التصريح أو على الأقلّ على تاريخ نشره بالرّغم من الاتّصالات المتكرّرة الّتي أجراها مع الأمانة العامّة المذكورة! قراءة مغلوطة من ناحية واتّهام بدون دليل من ناحية ثانية في معالجة «قضية خطيرة وكبيرة مثل لقاء غرناطة» (فخري قعوار: «الموقف من أدونيس الذي يشارك»... **النّهار** بيروت ١٩٩٤/٤/١٢) كافيان لإعطاء فكرة عن البؤس الذي=

إلى ذلك أعلاه. ولعلّ أوّل ما يلفت النّاظر في كلمتي أدونيس كيفية مقاربته لموضوعه، أو الزّاوية الّتي تنطلق منها البؤرة الّتي تصبّ فيها نظرته لهذا الموضوع. وقد لا تتضح دلالة هذه المقاربة إلاّ من خلال سياقها التّاريخي أو الحدثي، إذ إنّ هذا السياق هو الّذي يعطي للكلمة مغزاها الفعلي وقيمتها الحقيقية.

في ما يخصّ «مقال **القدس**» ينبغي أولاً التّذكير ببعض الوقائع المتّصلة بالحرب الّتي جاء نشر هذا المقال لتوضيح موقف أدونيس منها. فالمعروف أن القوّات الأميركية وحلفاءها بدأت حربها ضدّ العراق في ١٩٩١/١/١٧ بالقصف الجوّي لبغداد، وأنّ هذا القصف استمرّ في هيمنة تامّة على سماء الخليج حوالي أربعين يوماً كان يدمّر خلالها أهدافاً عسكرية واستراتيجية ومدنيّة عراقيّة في ما يشبه عملية إبادة جذريّة ومبرمجة لكلّ مراكز التقدّم ومعالمها في العراق؛ وأنّ الهجوم البرّي للقوّات المذكورة بدأ فجر ١٩٩١/٢/٢٥، ودخلت هذه القوّات الكويت في ١٩٩١/٢/٢٧، وأعلن الرّئيس الأميركي آنذاك جورج بوش في ١٩٩١/٢/٢٨ وقف العمليات العسكرية بعد قبول العراق الانصياع لجميع قرارات مجلس الأمن التي صدرت بشأنه بعد اجتياحه للكويت في ١٩٩٠/٨/٢. في خضمّ القصف الجوّي اليومي الاستثنائي الفظاعة للعراق يوجّه محرّر **القدس** في عددها الصّادر في ١٩٩١/٢/٨ رسالة إلى أدونيس يتساءل فيها: «أين هو ولماذا لم نسمع صوته والطّائرات الأمريكيّة تحصد الأخضر واليابس في العراق»؟[٨] فيأتيه جواب من أدونيس يأسف فيه لعدم اطلاعه على الرّسالة إلاّ في ١٩٩١/٣/٢ ويرسل معه «ربطاً النّص الّذي كتبته حول الحرب. نشر بالألمانية والسّويدية والفرنسيّة، ولا أزال أنتظر جريدة عربيّة تقدّمية تنشره ـ لعلّها **القدس**»...[٩] والنّص المشار إليه مؤرخ في باريس في ١٩٩١/٢/١٢، سارعت **القدس** إلى نشره بعد يومين من استلامه[١٠].

لكن الملاحظ أنّ «الموضوع الأساسي» للمقال ليس دكّ «الطّائرات الأمريكية» والحليفة لها «الأخضرَ واليابس في العراق» وإنّما إبداء «بعض الملاحظات العامّة حول بعض الآراء الّتي يفصح عنها الخطاب الغربي بشكل عام[١١]. وهي ملاحظات، بغضّ النّظر عن قيمتها أو صحّة منطقها وتماسك أطروحاتها وسلامة مفاهيمها، تشكّل في أوج الحرب التدميريّة الّتي كان العراق يتعرّض لها والّتي كتب النّص حولها، انحرافاً واضحاً ومزدوجاً عن القضية المطروحة ـ الحدث القائم إلى مسألة ثانوية فيه وضبابيّة إلى حدّ بعيد من ناحية، وإلى مساجلة بشأنها كان بالإمكان القيام بها قبل هذه الحرب بسنة أو عقد أو حتّى قرن كما يمكن استعادتها اليوم دون تغيير يذكر بأسسها.

تنمّ هذه المقاربة للحدث في خضمّ تطوّراته المأساوية عن مفارقة صارخة. فهي لا تطرح الأسئلة الأساسيّة الّتي يستدعيها حول تمكّن أعتى قوّة إمبريالية في العالم من إخضاع المؤسّسات الدّولية لمشيئتها وتدميرها المتواصل على مدى أربعين يوماً لمقوّمات عيش وحضارة شعب بمشاركة أو تواطؤ جميع دول العالم تقريباً، والعلاقة بين هذا التدمير الرّهيب والأهداف المعلنة للحرب، وبين التّعبئة الإعلامية المكثّفة والمنسّقة في أكبر عملية تدجيل إخباري أُخضع الرّأي العام العالمي لها والمصالح والغايات الحقيقيّة الّتي كانت هذه الحرب تشنّ من أجلها... بل إنّ منطلق المقاربة نفسه يزيدها مفارقة بقدر ما يعتمد على مسلمة لا تتعارض مع المقولات الدّعائية لـ «الخطاب الغربي»، بل يمكن القول إنّها تأتي هنا بتأثير هذه المقولات بالذّات، وإن كان المقال يبدأ بها ليبيّن ازدواجية هذا الخطاب. فأدونيس يبدأ ملاحظاته بالقول: «أن يكون صدّام حسين ديكتاتورياً لا يقيم وزناً للإنسان والحريّة، شأن كلّ ديكتاتور، واقع صحيح لا يمكن إنكاره...»[١٢] كأنّ ديكتاتورية صدام حسين هي الدّافع للحرب ضدّ العراق، وكأنّها خاصّة هي المبرّر لما كان يفعله طيران «التّحالف الأميركي» آنذاك من تخريب وتهديم للبنى التحتيّة الاقتصاديّة والاستراتيجيّة فيه وقتل الألوف من أبنائه. وإذا كان أدونيس يمضي من ذلك ليبيّن في سكوت «الخطاب الغربي» عن ديكتاتوريته قبل هذه

---

= تردّى فيه بعض المؤسّسات الثقافية العربيّة، في الوقت الّذي تتحدّث فيه عن «صراع الأمّة مع العدو» («بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، ص ١٠٨) وعن «الخندق الأخير» الّذي تريد أن تبقي المثقّف العربي فيه («فخري قعوار الأمين الهادئ الملتزم»... سبق ذكره) كأنّها تخوض الحرب ضدّ العدو الصهيوني ثقافياً على النّمط ذاته الّذي كانت بعض الأنظمة العربيّة تخوضها ضدّه عسكرياً! وكأنّها لا تدرك أنّ حقيقة قضيّة أو عدالتها لا تكفي وحدها لانتصارها، وأن الوسائل المعتمدة لا تقل أهمية عن المبادئ الّتي تعمل بِهدْيها، وأن الوسائل القاصرة أو الخاطئة لا تؤدّي إلى الخسارة والهزيمة وحسب، وإنّما تسيء كذلك إلى المبادئ والقضايا التي جاءت من أجل الدّفاع عنها والانتصار لها.

(٨) «وجهة نظر في حرب الخليج..» ذكر سابقاً.

(٩) المرجع السّابق. لا يحدّد أدونيس هنا أسماء الدّوريات الأجنبية الّتي نشرت مقاله، ولا أسماء الدّوريات العربيّة الّتي رفضت نشره كما يستنتج القارئ من قوله «لا أزال أنتظر...».

(١٠) المرجع نفسه.

(١١) م.ن.

(١٢) م.ن.

الحرب، كما عن سكوته عن حقوق أقليات كثيرة وحقوق الفلسطينيين... ازدواجيةَ هذا الخطاب، عدا عن جهله بالقضايا العربيّة وتبعيته للسياسة الأميركيّة، فإنه لا يطرح سؤالاً واحداً حول مفهوم الديكتاتوريّة نفسه وعمّا إذا كان يصدق فقط على صدام حسين دون بقيّة الحكّام العرب ملكيين كانوا أو عسكريين، وعمّا إذا كانت الأنظمة الإمبرياليّة في «الغرب» وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأميركيّة «تقيم وزناً للإنسان والحريّة» وإذا كان العدوان النّاشط على العراق آنذاك من تجلياته؛ بل هو لا يسأل ما إذا كانت القوّات الأميركيّة الّتي أرسلها جورج بوش إلى السّعودية لحمايتها من عدوان محتمل مدعياً أنّها غير معنيّة بإخراج العراقيين من الكويت[١٣] والقوّات العربيّة الّتي قرّرت القمّة العربيّة المنعقدة في ١٩٩٠/٨/١٠ إرسالها إلى السّعودية للدفاع عنها، إذا كانت هذه القوّات جميعاً قد توجّهت إلى الخليج دفاعاً عن الدّيمقراطيّة وحقوق الإنسان فيه! وعمّا إذا كان هذا الدّفاع يقتضي تدمير العراق!.

## ندوة غرناطة كانت تتويجاً لـ«إعلان المبادئ» بين م.ت.ف. و«إسرائيل»!

هذه المفارقة في مقاربة الموضوع قائمة أيضاً في «كلمة غرناطة» الّتي يجدر وضعها هي الأخرى في إطارها من الأحداث الممهّدة والمرافقة لها. إذ لم تكن دعوة منظمة اليونيسكو بعض المثقّفين العرب الإسرائيليين إلى ندوة أو مؤتمر عقد في غرناطة من ١ إلى ١٠/ ١٩٩٣/١٢ دعوة بريئة. فهي قد جاءت تحت عنوان «لننتقل من ثقافة الحرب إلى ثقافة السّلام»[١٤] أو للتأمل في «السّلام وما بعده»[١٥]، والمقصود بالسّلام المذكور اتّفاق «غزّة ـ أريحا أولاً» الّذي توصّل المفاوضون الفلسطينيون والإسرائيليون إلى إنجازه قبل ذلك بحوالي ثلاثة أشهر. ولم يكن اختيار التّاريخ بدون مغزى؛ ففي ١٩٩٣/٩/٩ وقّع رئيس منظّمة التّحرير الفلسطينيّة ياسر عرفات وثيقة اعتراف بإسرائيل، وفي ١٩٩٣/٩/١٠ وقع رئيس الحكومة الإسرائيلية إسحاق رابين وثيقة اعتراف بالمنظّمة المذكورة، تمهيداً لتوقيعهما الرّسمي على الاتّفاق الآنف الذّكر في ١٩٩٣/٩/١٣. فكانت النّدوة بمثابة ترويج وتدعيم لهذا الاتّفاق من قبل اليونيسكو الّتي حرصت على إقامة ندوة أخرى في ١٩٩٤/٩/١٣ في مقرّها بباريس تحت عنوان «التّسامح والتّسامح المرفوض» بمناسبة مرور سنة على التّوقيع المشار إليه[١٦]. وقد توصّل الطّرفان الفلسطيني والإسرائيلي إلى هذا الاتّفاق إثر مفاوضات سريّة أجرياها في أوسلو (النّروج) طوال تسعة أشهر بموازاة المفاوضات العلنية العربيّة ـ الإسرائيليّة في واشنطن[١٧]، وهو ما جعل البعض يتّهم قيادة م.ت.ف. بالخسّة والنّفاق، بينما قدّم أنصارها هذا العمل باعتباره شطارة باهرة. ويمكن القول إنّ هذا الاتّفاق جاء تأكيداً على الوضع المتخلخل للمفاوضين العرب وعلى انعدام الثّقة بين وفودهم وعلى نزعة التفرّد الغالبة على القيادة الفلسطينيّة وعقلية العصابة (المافيا) الّتي تتحكّم فيها وأسلوب الصّفقات الّذي تمارسه في ظلّ انعدام أي رقابة على مبادراتها وتوجّهاتها، الأمر الذي أثار ردود فعل سلبيّة عدّة تمثّلت خاصّة في استقالات من اللّجنة التّنفيذية للمنظّمة أو مقاطعتها (محمود درويش وشفيق الحوت...) والعديد من المقالات لمثقّفين فلسطينيين بارزين (كأنيس صايغ وإدوار سعيد...) تدين تهافت قيادة المنظّمة وجهلها وتفريطها بحقوق الشعب الفلسطيني، وفي رفض العديد من المنظّمات والقوى السّياسيّة الفلسطينيّة الفاعلة والمؤثّرة له (كالجبهة الشّعبية والجبهة الشعبيّة الديمقراطيّة ومنظّمة حماس...). هكذا كان هذا الاتّفاق في أدنى اعتباراته موضع نزاع بين صفوف الفلسطينيين أنفسهم وبين أحزاب وقوى وأنظمة عربيّة مؤيّدة أو معارضة له. إلاّ أنّ أخطر ما مثّله هذا الاتّفاق أنّه جاء يكرّس تخلياً نهائياً من قبل م.ت.ف. عن النّضال والمناضلين داخل فلسطين وخارجها ضدّ العدوّ الصهيوني، وتوجّهاً حاسماً بعد الاعتراف به نحو التّعاون معه على حساب هؤلاء المناضلين وتضحياتهم. ففي الوقت الّذي كانت

---

(١٣) صحف ١٩٩٠/٨/٨.

(١٤) «استنكار لقاء مثقّفين عرب مع صهاينة» ذكر سابقاً.

(١٥) «بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، ص ١٠٨.

(١٦) «في ندوة تعقد في مقر «يونيسكو» لمناسبة مرور سنة على اتّفاق أوسلو/ الباز: إسرائيل تتحدّث عن سورية سلباً وعليها أن تتعامل بعقل منفتح» (**الحياة** لندن ١٥/ ١٩٩٤/٩). وخلافاً لندوة غرناطة لم تثر ندوة باريس أي ردّ فعل سلبي! كما لم تذكر الصّحف أسماء المشاركين فيها. وتعذّرت معرفة ما إذا كانت «اللّجنة العربيّة لمقاومة التطبيع مع العدو الصهيوني» الملحقة بالاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب، أو اللّجان القطرية لمقاومة التطبيع الثّقافي، في كلّ اتّحاد أو رابطة، قد تابعت الأمر واتّخذت موقفاً مناسباً بصدده. على أنّ بعض أعضاء «اللّجنة التحضيريّة للمؤتمر الدّائم لمناهضة الغزو الثّقافي الصهيوني في لبنان» لا يملك أي معلومات عنه. لقد أعلن فخري قعوار عن خشيته من أن يشكّل تغاضيه «عن قضية خطيرة وكبيرة مثل لقاء غرناطة» وعن دعوة أدونيس للمشاركة في مهرجان جرش، غطاءً لعمليات التطبيع السّياسي والاقتصادي، ويفتح الباب أمام شعراء أو أدباء ومفكرين عرب لمتابعة هذه اللّقاءات، ويفقد اللّجنة العربيّة واللّجان القطرية لمقاومة التّطبيع مبرّر إنشائها... («الموقف من أدونيس الّذي يشارك»... ذكر سابقاً). لعلّ اللّجان المذكورة اكتفت بهذا المبرّر ولم تعد تطرح على نفسها من ثمّ جدوى وجودها.

(١٧) «مذكّرات محمود عبّاس (أبو مازن)... طريق أوسلو (١٤)» **الحياة** (لندن) ١٩٩٤/٩/٢٧، ص٧.

تجري فيه المفاوضات السريّة كان الكيان الصهيوني يمارس أقسى أنواع القمع ضدّ الانتفاضة الشّعبية في فلسطين؛ ويقوم في ١٢/١٧/ ١٩٩٢ بإبعاد أكثر من ٤٠٠ فلسطيني من الأرض المحتلّة في خرق فاضح للقوانين الدّولية، وتحدّ صلف للشرعية الدّوليّة؛ ويجتاح في المرحلة الأخيرة لهذه المفاوضات في أشرس عمليات قصف جوّي استمرّت أسبوعاً (من ٧/٢٥ إلى ١٩٩٣/٧/٣١) خمسين بلدة في جنوب لبنان وبقاعه، مدمّراً بصورة كليّة حوالي ١٠ آلاف منزل وبصورة جزئيّة حوالي ٢٠ ألف منزل آخر محوّلاً حوالي نصف مليون شخص من سكّان هذه المنطقة إلى مهجّرين خارجها، سعياً لوقف عمليات المقاومة ضدّه في المناطق اللّبنانيّة الّتي يحتلّها بالرّغم من القرارات الدّوليّة القاضية بانسحابه منها (قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥ سنة ١٩٧٨) مدعوماً في ذلك بتأييد أميركي مطلق. ومن المصادفات العميقة الدّلالة أن يترافق توقيع الاتّفاق بأحرفه الأولى في أوسلو[١٨] مع قيام المقاومة اللّبنانية (حزب الله) بعمليتين عسكريتين ضدّ جيش الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان فتقتل تسعة من عناصره وتجرح خمسة آخرين (في ١٩/٨/١٩٩٣).

ومع ذلك لا يتردّد أدونيس في المضي إلى غرناطة للمشاركة في التّرويج لاتّفاق أوسلو بكلمة مبتكرة، فيسأل «إسرائيل» إن كانت ستعطي اليهودية بعداً ثقافياً متمازجاً ومتنوعاً مثل الزّواج المختلط والتّعليم المفتوح... إلخ! في ١٠/١٢/١٩٩٣ تاريخ إلقاء أدونيس كلمته كان أكثر من ٤٠٠ فلسطيني أخرجتهم «إسرائيل» من فلسطين لايزالون في «مرج الزّهور» على تخوم الأرض اللبنانية المحتلّة من قبل «إسرائيل» منذ حوالي العام مبعدين عن عائلاتهم وجامعاتهم وأرضهم.. وكانت سجون «إسرائيل» تغصّ بعشرات الألوف من الفلسطينيين وسواهم من المناضلين ضدّ الاحتلال الصهيوني ولاسيّما اللبنانيين الذين لم يتمكّن الصّليب الأحمر الدّولي من زيارتهم في معتقل الخيام في المنطقة المحتلّة من جنوب لبنان، وتتواتر الأنباء عن عمليات التّعذيب الوحشي الّتي يتعرّضون لها... وكان جنود «إسرائيل» يمضون إلى مهمّاتهم اليوميّة من إطلاق نار على الأطفال والشبّان العزّل في فلسطين أو قصف المدنيين وتدمير بيوتهم في لبنان... ولكن لم يكن احتلال الأرض العربيّة ولا تقتيل سكّانها أو سجنهم أو تخريب أسس عيشهم، وغيرها من المعطيات الّتي تجعل من عمليّة «السّلام» عمليّة إذعان .ورضوخ لمنطق القوّة الصهيونيّة الاستيطانيّة هي موضوع «كلمة غرناطة» الّتي لا تتساءل عن نوعيّة هذا «السّلام» المزعوم ولا عن شروطه ودوافعه وفارضيه وأطرافه

## إسرائيل تجتاح وتقتل، وأدونيس يسألها عن الزّواج المختلط!

والمتغيّرات الّتي أدّت إليه والثّوابت الّتي تحافظ عليها... إلخ. بل تتساءل ـ فحسب ـ عن الزّواج المختلط والتّعليم المفتوح... حيث لا يصعب على الكيان الصهيوني أن يظهر في هذه المجالات مماثلاً لأوضاع معظم الدّول العربيّة إن لم يظهر أفضل منها! كما لا تعوزه المبرّرات بشأنها أو يضيره التميّز فيها!

هذه المفارقة بين الموضوع المطروح ومقاربته تصبح، كما في المقال السّابق، أفدح إذا ما جرى الالتفات إلى منطلق المقاربة الّذي لا يقلّ ابتكاراً عنها. فأدونيس يبدأ كلمته بالقول: «تنتمي إسرائيل، جغرافياً، إلى منطقة من العالم تقوم ثقافتها، أساساً على التمازج والتنوّع»[١٩]... يتضمّن هذا الرّأي جملة من المسلمات البالغة الخطورة، بقدر ما يستبعد الواقع الاستيطاني العدواني للكيان الصهيوني في فلسطين من ناحية، وبقدر ما يوطئ لتبرير عنصريّته ويحضّ على الاعتراف به والتّعاون معه من ناحية ثانية. فالقول بالانتماء الجغرافي لـ «إسرائيل» يعني اعترافاً بها كدولة من جهة، وبوجودها الطّبيعي، على الأقل مثلها مثل أي دولة أخرى، في المنطقة (العربيّة؟) من جهة ثانية. وإذا كان القول بالانتماء الجغرافي لدولة يفترض أرضاً تقوم عليها، فإن الأخذ به في ما يخصّ الكيان الصهيوني لا يستبعد امتداد أرض هذا الكيان إلى حيث تصل جيوشه من وجه، ولا التّناقض الّذي يثيره مع القول بوجود فلسطين[٢٠] من وجه آخر. وفي الحديث عن التّمازج والتنوّع الثّقافي في هذه المنطقة إدانة للدول العربيّة الّتي لم تعترف بـ «إسرائيل» وقاطعتها وحاربتها، وتدعيم للادّعاءات الصهيونيّة الّتي تقدّم «إسرائيل» إعلامياً بأنّها دولة منفتحة على دول المنطقة وتسعى للتمازج معها، لكنها تقابَل بالصدّ والانغلاق. كما أن في إبراز التنوّع والتّمازج ما يبرّر الاختلاف

---

(١٨) بعد قرار اللّجنة التنفيذيّة لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة في ١٩٩٣/٨/٢٩ الطّلب من وفدها إلى الجولة الحادية عشرة من المفاوضات الثّنائيّة العربيّة ـ الإسرائيلية في واشنطن الأخذ بخيار مشروع «غزّة ـ أريحا أولاً»، يقرّر مجلس الوزراء الإسرائيلي في ١٩٩٣/٨/٣٠ الموافقة على هذا المشروع، ويكشف وزير الخارجيّة النروجيّة من ثمّ استضافة بلاده اجتماعات سريّة بين الفلسطينيين والإسرائيليين انتهت إلى توقيع المشروع المذكور بالأحرف الأولى أثناء زيارة شمعون بيريز وزير الخارجية الإسرائيليّة إلى أوسلو في ١٩ و١٩٩٣/٨/٢٠ (صحف ١٩٩٣/٨/٣١).

(١٩) «نص الكلمة الّتي ألقاها أدونيس في مؤتمر غرناطة» ذكر سابقاً.

(٢٠) راجع «بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، حيث يذكر أنّ معظم المشاركين العرب في غرناطة كانوا من الفلسطينيين، و«معظم هؤلاء من المقيمين في فلسطين» (ص ١٠٨ ـ ١٠٩).

واللاّتجانس، أي وجود الكيان الصهيوني في المنطقة العربيّة، بقدر ما يعني التنوّع المتعدّد ولا يفرض التّمازج التّماهي ولا يستبعد التّمايز، بحيث يصبح أي رفض لهذا الكيان لامنطقياً ولاطبيعياً في آن. ضمن هذا المنظور لا يعود في الأسئلة الخاصّة بالتّمازج والتنوّع من إحراج للكيان الصهيوني، بل على العكس يجد هذا الكيان في ازدواجية واجهته الاقتصاديّة ـ السّياسيّة اللّيبراليّة الغربيّة والفكرويّة السّلفيّة لعقيدته العنصريّة ما يتيح له مواجهتها بقدر كبير من الارتياح.

هكذا إزاء وضع بالغ الخطورة بأحداثه وتطوّراته، بدءاً من احتلال الكيان الصهيوني العنصري الأرض العربيّة وممارسته شتّى أنواع العدوان على شعبها، وصولاً إلى استسلام أنظمتها وقادتها لسطوته وهيمنة الولايات المتّحدة الأميركيّة عليها، يتجاوز أدونيس جميع الأسئلة المتعلقة به ويمضي إلى مسألة غير مطروحة، إلى خارج الموضوع، إلى جغرافية التمازج والتنوّع، والأسئلة «الساذجة» التي يبتكرها لها، في مفارقة تضاهي سابقتها.

لكن هذه المفارقة تخفي هنا كما هناك منطقاً ورؤية قد يكشفهما التّساؤل عن السّبب في اعتمادها الجغرافيا هنا (بالنّسبة لـ «إسرائيل») والسّياسة هناك (بالنّسبة للعراق) منطلق المقاربة، وعمّا إذا كانت النّتيجة الّتي تبلغها مثل هذه المقاربة ستبقى على حالها لو جرى اعتماد منطق أو مقياس واحد في الحالتين، أو لو أن مبدأ المقاربة المعتمد في إحداهما استبدل بذاك المستعمل في الأخرى فتمّ تناول احتلال العراق للكويت من زاوية الانتماء الجغرافي، وتناول استيطان الكيان الصهيوني في فلسطين واحتلاله لأراض عربية أخرى من الزّاوية السّياسيّة لمفهوم الدّكتاتوريّة. إنّ مقاربة كهذه كانت ستؤدّي في الافتراض الأوّل إلى تكريس احتلال العراق للكويت ونبذ التّدخّل الأجنبي بشأنه، وإلى توفّر أجوبة مقنعة وملموسة عن أسئلة التّمازج والتنوّع الثّقافي المتعلّقة بها، بل إلى تقديم ما هو أرقى مما تتوقّف عنده بقدر ما يوجد بين الكويت والعراق من تاريخ وعلاقات متنوّعة ولغة مشتركة؛ وتؤدّي في الافتراض الثّاني إلى كشف الحقيقة النّازيّة الجديدة للحركة الصهيونيّة وما تتطلّبه، على غرار ما حصل في الحرب العالميّة الثّانية ضدّ النّازية الألمانيّة، من ردّ عاجل وحاسم من قوى الدّيمقراطيّة (اللّيبراليّة والشيوعيّة) في العالم أجمع لشلّها وكفّ أذاها عن المنطقة العربيّة والمجتمع الدّولي وإزالتها عن مواقع الاحتلال، أيّ إزالتها كدولة من الوجود. لكن ما يجري في مقال أدونيس وكلمته حركة معاكسة لهذا الافتراض، وهي حركة متكاملة إذا نظر إليها من زاوية التمييز بين الضّحية والجلاّد. ففي ظلّ القصف المدمّر للعراق يتّجه المقال

---

(٢١) «وجهة نظر في حرب الخليج: الصّلاة والسّيف»... ذكر سابقاً.

(٢٢) المرجع السّابق.

(٢٣) راجع الهامش رقم (٧).

### من د. خالدة سعيد

خلال السجال الدائر في وسائل الإعلام العربية حول أدونيس وحضوره المؤتمر الذي عقدته منظمة الأونيسكو في غرناطة (كانون الأول ١٩٩٣)، وردت إشارات متكررة إلى مقالة نشرها في جريدة **القدس** الصادرة بلندن يوم ١٩٩١/٣/١١ بعنوان «الصلاة والسيف أو الديمقراطية المتوحشة»... أولى الإشارات إلى هذه المقالة جاءت على لسان السيد فخري قعوار الأمين العام للاتحاد العام للكتّاب العرب إذ خص مضمون المقالة بعبارة: «كتب [أدونيس] مقالاً يعادي الولايات المتحدة الأميركية لأنها لم تضرب العراق قبل الوقت المحدد لضربه لأنها راعية حقوق الانسان في العالم» (جريدة **النهار** اللبنانية ١٩٩٤/٤/١٩). وآخر الإشارات ما كتبه د. سامي سويدان في جريدة **السفير** اللبنانية بتاريخ ١٩٩٥/٣/٢ بعنوان «المثقف العربي: من الطليعة إلى الفجيعة»، وأعلن في نهايته أن المقال سينشر في مجلة **الآداب**.

ولمّا كان هذا الجانب من السجال يدور حول نص غائب هو مقال أدونيس، باعتبار أن جريدة **القدس** المذكورة لا توزّع في لبنان وسوريا؛ ولمّا كان السجال قد تحوّل إلى قضية عامة لا تعني أدونيس وحده، كما أنها لا تنحصر في موقف اتحاد الكتاب العرب في سوريا المشار إليه.. فإنّي أرجو نشر هذا النص كاملاً، أو على الأقل في قسمه المتصل بحرب الخليج.

**«الآداب»:** سيتم نشر مقال جريدة القدس، جنباً إلى جنب مع مقدمة كتاب **الإمام محمد بن عبد الوهاب** التي أثار قضيتها د. صبري حافظ في العدد القادم

بصدده إلى إدانة الضّحيّة، وفي ظلّ العدوان الصهيوني العنصري على الفلسطينيين والعرب تمضي الكلمة بشأنه إلى تبرئة الجلاّد؛ تطمس في المقال الأوّل عمليّة الإبادة الجارية للإنسان والحضارة في العراق، وتهمل في الكلمة الثّانية أيّ إشارة إلى مجازر الصهيونيّة العنصريّة في فلسطين والأراضي العربيّة الأخرى.

قد يكون من الصّعب تحديد الانتماء الجغرافي لأدونيس، بوصفه مقيماً في أرض «الكتابة بين الكلمات...»[٢١] إنّما ليس صعباً تحديد انتمائه السّياسي (والفكروي ـ الثّقافي). فهذا الانتماء يتكشّف بالرّغم من ادّعائه بأنّه «مسكون بشعبه وبالإنسان»[٢٢]، عن التحاق ضمني بمنطق «الغرب» الرّأسمالي (الإمبريالي) وهو إن بدا مضمراً كامناً في هذه المقاربات فإنه معلن وبارز الحضور على المستويات الأخرى لمداخلاته ونصوصه السّجاليّة.

## الحقيقة والزّيف: المنهج التّلفيقي

«تبياناً للحقيقة، واحتراماً لأصدقائها ـ أصدقائي، أقدّم هذه الإيضاحات». هذا ما يعلنه أدونيس في ردّ على بيان الأمانة العامة للاتّحاد العام للأدباء والكتّاب العرب. ويشمل هذا الردّ الإيضاحي ثلاث مسائل: تصريحاته المزعومة إلى **يديعوت أحرونوت**، ومقاله في **القدس** «الصّلاة والسّيف أو الدّيمقراطيّة المتوحّشة»، ومشاركته في ندوة غرناطة. ولقد سبق التعرّض آنفاً للمسألتين الأوليين[٢٣]، لذا يُقتصر هنا على تناول المسألة الأخيرة، وهي تحظى في الردّ المذكور

بعناية استثنائية، لرؤية مدى مطابقة الادّعاء (التزام الحقيقة) للفعل (الإيضاح).. علماً أنّ مأخذ الأمانة العامّة على أدونيس في ما يتعلّق بهذه المسألة كان مشاركته مع كتّاب عرب آخرين في لقاء مع كتّاب إسرائيليين في غرناطة، وهذا «يتنافى مع توجّه الأدباء والكتّاب العرب نحو مقاومة التّطبيع الثّقافي مع العدوّ»[٢٤].

يمهّد أدونيس لتوضيحه هذه المسألة باتّهام «اتّحاد الكتّاب العرب» بصوغ كلامه عليها «بطريقة تموّه وتضلّل ـ وكان عليه، من باب الموضوعيّة وحدها، أن يكون دقيقاً»[٢٥]... وفي ما يبدو أقرب ما يكون إلى تلقين الاتّحاد أصول الدقّة الموضوعيّة يورد أدونيس تبريره لمشاركته في «مؤتمر غرناطة» في أربع نقاط يتمثّل فيها توضيحه المشار إليه وبيانه المعلن للحقيقة.

١ ـ يذكر أدونيس أولاً أنّ منظّمة اليونسكو هي الّتي عقدت هذا المؤتمر، وأنّ الدّول العربيّة أعضاء فيها، ويشارك مندوبو هذه الدّول في اجتماعاتها ونشاطاتها إلى جانب المندوب الإسرائيلي.

لا تشكّل هذه الملاحظة ردّاً مباشراً على «الاتّحاد» الّذي لم يتعرّض في بيانه إلى منظّم المؤتمر، كما لا تقدّم تبريراً للمشاركة فيه. فأن تكون الدّول العربيّة أعضاء في هذه المنظّمة، مثلها مثل العديد من المنظّمات والهيئات التّابعة لجمعية الأمم المتّحدة، ويشارك مندوبوها في اجتماعاتها إلى جانب المندوب الإسرائيلي، أمر مختلف تماماً عن مشاركة كتّاب عرب وإسرائيليين في مؤتمر أعدّته اليونسكو. ذلك أنّ المندوبين العرب كما هو معروف مجبرون على قبول المندوب الإسرائيلي، ولو كان بمقدورهم أن يخرجوه من المنظّمات الدّوليّة لفعلوا. وحتّى وقت قريب، حتّى وقوع «حرب الخليج الثّانية»، كانت الدّورات العادية للجمعية العامّة لمنظّمة الأمم المتّحدة تشهد باستمرار اقتراحاً من الدّول العربيّة وحلفائها بطرد «إسرائيل» من هذه المنظّمة ونزع عضويتها فيها. فالدّول العربيّة ـ باستثناء مصر منذ معاهدة ١٩٧٩ مع «إسرائيل» ـ لم تكن حتّى اتّفاق أوسلو تعترف رسمياً بـ «إسرائيل»، وكانت تأخذ إلى جانب مقاطعتها السّياسيّة والدّبلوماسيّة بمقاطعتها ومقاطعة المتعاملين معها من الشّركات اقتصادياً، وكانت الهيئات الدّولية الّتي يشارك فيها العرب والإسرائيليون تشهد حرباً دبلوماسيّة بينهم هي استمرار وامتداد لحروبهم العسكريّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، وكانت تتّخذ أحياناً صيغة المقاطعة أو الانسحاب حين يلقي المندوب الإسرائيلي كلمة في الهيئات المذكورة. ومن مظاهر هذه الحرب أنّ العرب وحلفاءهم تمكّنوا في ١٩٧٥/١١/١٠ من استصدار قرار من الجمعية العامة لمنظّمة الأمم المتّحدة يعتبر الصهيونيّة حركة عنصرية، وهو القرار الذي بقي سارياً فلم تتمكّن إسرائيل والولايات المتّحدة الأميركيّة بالرّغم من جهودهما الحثيثة في هذا السّبيل من إلغائه، حتّى وقوع «حرب الخليج الثانية» وما تبعها من مفاوضات عربيّة ـ إسرائيلية فتيسّر لهما ذلك في ١٩٩١/١٢/١٦. إذاً، هذه الهيئات الدّوليّة هي ساحات صراع بين العرب و«إسرائيل»، وهو صراع خاضع لتوازن القوى فيها وللشروط التاريخيّة الّتي تحكمه. وليس قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بصدد الصهيونيّة إلاّ مثلاً على ذلك. فلا يمكن لعاقل أن يتصوّر أنّ الحركة الصهيونيّة لم تكن عنصريّة قبل ١٩٧٥، أو أنّها لم تعد كذلك بعد ١٩٩١. إنّ الصهيونيّة لم تتغيّر، وكيانها الاستيطاني في فلسطين لم يتبدّل، وما تغيّر هو توازن القوى وظروف الصّراع، خاصّة مع تفرّد الولايات المتحدة الأميركيّة في الاستقطاب الدّولي والهيمنة العالميّة ومع النّتائج الفاجعة الّتي عرفهاالعرب بعد «حرب الخليج الثّانية». في جميع الأحوال لا يمكن تقديم مثل واحد على مشروع مشترك ساهم فيه عرب وإسرائيليون على النّمط الّذي جرى في غرناطة قبل اتّفاق «غزّة أريحا أولاً» الّذي جاء «مؤتمر غرناطة» لتدعيمه، أي لتدعيم ما أسفر عنه توازن القوى العالمي لغير صالح العرب. مع الإشارة أخيراً إلى أنّ الكتّاب المدعوين إلى هذا المؤتمر لم يكونوا، خلافاً لمندوبي الدّول العربيّة في الهيئات الدّوليّة الممثّلين لحكومات بلادهم وسياساتها والخاضعين لتوجيهاتها، ملزمين بحضوره، وكان أجدر بالمثقّف العربي في هذه الحالة أن يفضح مهزلة التّهريج لاتّفاق «سلام» زائف، بدل الانخراط في هذه المهزلة والمشاركة في هذا التهريج والاضطرار لتبرير ذلك بإحالات ومقارنات مغلوطة. إلاّ أنّ اليونسكو كانت تدرك تماماً إلى من توجّه دعوتها.

٢ ـ ينكر أدونيس ثانياً أن يكون «المؤتمر لقاء بين الكتّاب العرب والكتّاب الإسرائيليين، وإنّما كان لقاء دولياً حضره حوالي خمسين مدعواً من الكتّاب والمفكّرين والإعلاميين من مختلف البلدان، للتأمّل في السّلام وما بعده[٢٦]»... وفي إنكاره ما يوحي بأنّ «الاتّحاد العام» قال إنّ اللّقاء اقتصر على الكتّاب العرب والإسرائيليين، وهذا غير صحيح أو غير دقيق[٢٧]. وفي تأكيده صفة الدّوليّة للمؤتمر غير مشفوعة بالإشارة إلى مدعوّين من مختلف البلدان ما يوحي بعالميّته أو تعدّديّة التيّارات فيه، وهذا أيضاً غير صحيح أو غير دقيق؛ فإذا كان بالإمكان قبول صفة «الدّوليّة» فاستناداً إلى اعتبار اليونيسكو المنظّمة للمؤتمر هيئة دولية، وهو ما تناولته النّقطة الأولى؛ أمّا القول بأنّ

---

(٢٤) «بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، ص ١٠٨.

(٢٥) المرجع السّابق، مع الإشارة إلى أن المقصود هنا هو «الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب»؛ على أنّ «اتّحاد الكتّاب العرب» اسم لتجمّع الكتّاب في سورية.

(٢٦) المرجع نفسه.

(٢٧) راجع الهامش رقم (٢).

المشاركين الخمسين هم من مختلف البلدان فلا يصحّ إلاّ إذا كان هنالك مشاركون يحملون أكثر من جنسية ويمثّلون أكثر من بلد كي يتمكّن الخمسون من تمثيل هذه البلدان أو العالم بأجمعه تقريباً! لكنّ أدونيس يذكر أنّ المشاركين العرب كانوا حوالي العشرين، «معظمهم من الفلسطينيين»[٢٨].. أي أنّ الفلسطينيين كانوا على أقلّ تقدير أكثر من نصف العرب، فيبقى على أقصى تقدير إلى جانب أدونيس ثمانية من العرب نصفهم مصريون[٢٩]، فهل كان الأربعة الباقون ممثّلين لمختلف البلدان العربيّة الأخرى؟ أو كان من تبقّى من المشاركين غير الإسرائيليين ممثّلين للبلدان الأخرى في العالم؟ وهل كان هناك مثلاً كتّاب من اليمن والسّعودية والعراق وليبيا...؟ أو من الصّين واليابان وأندونيسيا والباكستان وإيران وتركيا وروسيّا والأرجنتين والبرازيل وكوبا والمكسيك...؟ وحين يذكر أدونيس أنّ غرض المؤتمر كان «التأمّل في السّلام وما بعده» (أم كان تحت عنوان: «لننتقل من ثقافة الحرب إلى ثقافة السّلام...»؟)[٣٠] فإنّه يتغافل عن الإطار الفعلي الّذي تمّت فيه الدّعوة للمؤتمر ويموّه الهدف الحقيقي المتوخّى منه، وهو دعم «اتّفاق أوسلو» والتّرويج الإعلامي والثّقافي - السّياسي له بإيعاز من الولايات المتّحدة الأميركية أو بمبادرة من اليونيسكو لنيل رضاها، وهو ما تؤكّده في دعوتها للمرّة الثّانية في أقل من عام إلى ندوة مماثلة تحت عنوان جديد[٣١]. وهذا ما يفسّر كثافة الحضور الفلسطيني (والإسرائيلي؟) وهو ما يعطي للمؤتمرين طابعاً واحداً جامعاً هو تأييد هذا الاتّفاق، ويفسّر تخصيصهم بالدّعوة إلى غرناطة، والغايةَ المقصودة وهي استثمار الثّقل الثّقافي (الأدبي والشّعري والفكري...) للمدعوين لدعم وتنشيط عملية سياسيّة تتولّى الولايات المتحدة الأميركية رعايتها وضمان مصالح الكيان الصهيوني في فلسطين والمنطقة العربيّة فيها.

كان على أدونيس «من باب الموضوعية وحدها»، ناهيك بالشجاعة الأدبيّة، أن يكون دقيقاً، فلا يعتبر لقاء يجري للترويج لاتّفاق أوسلو بين كتّاب فلسطينيين وإسرائيليين بمشاركة بعض الكتّاب العرب والأجانب المؤيّدين لهذا الاتّفاق لقاءً دولياً للتأمّل في السّلام. فكما لا يشرّف المثقّف العربي حضور مثل هذه المؤتمر واصطناعه لخدمة أغراض سياسيّة لصالح الولايات المتّحدة الأميركيّة وحلفائها وأتباعها في المنطقة العربيّة وعلى رأسهم الكيان الصهيوني في فلسطين، فإنّه يزري به أن يزخرف الكلام عنه في الوقت الّذي يدّعي التوضيح ويأخذ على منتقديه التّمويه والتّضليل.

## ذروة المأساة أن يرى أدونيس في موقف عرفات ما يبرّر موقفه وموقف من حضروا غرناطة!

٣ - يرى أدونيس ثالثاً، أنّ حضور «رئيس الدّولة الفلسطينيّة، الّذي يعترف به العرب والعالم، ممثّلاً شرعياً للشعب الفلسطيني» الجلسة الافتتاحية للمؤتمر «يعطي لحضور الكتّاب العرب مشروعية»[٣٢]... وفي ما يثبته أدونيس هنا جزء من الحقيقة. فالحقيقة أنّ افتتاح المؤتمر «لم يكن بحضور ياسر عرفات وحده بل بحضور شمعون بيريز وزير الخارجية الإسرائيليّة أيضاً»[٣٣]. ولا يأتي إغفال بيريز اعتباطياً أو سهواً، إذا كان لذكره مع عرفات أن يفضح الطّابع السّياسي للقاء والإطار الفعلي الّذي جرى توظيفه فيه - دعم «اتّفاق أوسلو» - وهو ما يجهد أدونيس لإخفائه ويناور لمواراته؛ كما كان له أن ينزع عن حجّة أدونيس لتبرير حضوره قيمتها. فهو إن وجد في حضور عرفات غطاء له فإنّ حضور بيريز يعرّي موقفه بقدر ما لا يعترف «العرب» بـ «إسرائيل» وبقدر ما يعتبرونها عدوّاً لهم فيقاطعونها سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً. هكذا كان لذكر كامل الحقيقة أن يدين لا أدونيس وحده بل جميع المثقّفين العرب الّذين حضروا لكونهم يسهمون جميعاً في كسر هذه المقاطعة، وفي إعطاء العدوّ المحتلّ للأرض والمنكل بشعبها شرعيةً معنويّة تفوق بقيمتها ثقافيّاً وعربيّاً واستراتيجيّاً الشّرعية الدّبلوماسيّة والسّياسيّة الّتي تمكّن من انتزاع بعضها.

إذا كان ما يخفيه أدونيس يدينه فإنّ ما يذكره لا يبرئه على الإطلاق. فهو حين يبرّر حضوره بحضور «رئيس الدّولة الفلسطينيّة»

---

(٢٨) «بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، ص ١٠٨.

(٢٩) راجع الهامش رقم (٥). وليس القيام بمثل هذه البهلوانيّة الحسابيّة إلاّ نتيجة الافتقار إلى معلومات وافية عن أسماء المشاركين وجنسياتهم.

(٣٠) راجع الهامش رقم (١٤) ورقم (١٥).

(٣١) راجع ما ذكر أعلاه حول «اتفاق أوسلو»، خاصّة في الهامش رقم (١٦) مع الإشارة إلى أنّ منظّمة اليونسكو تعرّضت في الثّمانينات إلى هجوم حاد من الولايات المتّحدة الأميركيّة الّتي امتنعت عن دفع ما يتوجب عليها من مساهمات ماليّة وانتقدت سياسة المنظّمة متّهمة إيّاها بمالأة دول العالم الثّالث، ولمّحت إلى ضرورة نقل مقرّها من باريس. ومع الهيمنة المتفرّدة للولايات المتحدة الأميركيّة على العالم منذ مطلع التّسعينات وإخضاعها الهيئات الدّولية، بدءاً من الجمعية العامّة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدّولي وصولاً إلى المنظّمات المتعدّدة المنبثقة عنها، لنفوذها وفرض رؤيتها ومصالحها على القرارات الصادرة عنها، جاءت نشاطات اليونيسكو لتعكس هذه التغييرات المستجدة.

(٣٢) «بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، ص ١٠٩.

(٣٣) «استنكار لقاء مثقّفين عرب مع صهاينة» ذكر سابقاً. من الجدير بالإشارة أنّ بعض الدّوريات ذكرت خطأً أنّ إسحاق رابين رئيس الحكومة الإسرائيلية هو الّذي حضر إلى جانب عرفات (**المحرّر** باريس، العدد ٢٤٩ - ١٩٩٤/٤/٢٥؛ ص ٧) وهذا من «الأخطاء الشّائعة» في الصّحافة والإعلام العربيين.

يجعل من موقف السّلطة السّياسيّة للدّولة من قضية مقياساً للحكم على صحّة أو خطأ موقف المثقّف منها، فيتحوّل بذلك المثقّف المفترض أن يكون مستقلاً وثورياً إلى تابع ومرتهن، وبدل أن ينطلق صوته للتعبير عن الحاجات الحقيقيّة للشّعب والمصالح الاستراتيجيّة للأمّة، ينأسر في التفنّن في استعادة «أصوات أسياده» في «إعادة ابتكار» متواصل لها. ذروة المأساة أن يختار أدونيس هذا الدّور ويمارسه، ملتحقاً بسلطة هي في أسفل درك من تفاهتها وتهافتها وأقصى حضيض من انهزاميتها واستسلاميتها، فيرى في موقف القائم باتّفاق أوسلو (عرفات) والحاضر إلى جانب شريكه فيه (بيرز) ما يبرّر موقفه هو وموقف سواه من الكتّاب العرب![٣٤] فإذا بالمثقف الذي يدين الأنظمة العربية التي تقمع الإنسان العربي على أرضه[٣٥] لا يتورّع عن الالتحاق بواحد من أكثرها تدجيلاً وتلفيقاً وسعياً للارتهان بالإمبرياليّة الأميركيّة وإسرائيل.

أمّا إشارته إلى أنّ حضور الكتّاب العرب «مؤتمر غرناطة» هو موقف جماعي وليس موقفاً فردياً يستفرد فيه وحده فهي نوع من البهرجة والتّزييف. ذلك أن موضوع رسالة الاتّحاد العام للأدباء والكتّاب العرب لم يكن مؤتمر غرناطة بل دعوة لجنة الشّعر في مهرجان جرش أدونيس لحضوره والمشاركة فيه؛ ولم تدع اللّجنة أحداً سواه من الّذين حضروا المؤتمر وسكت الاتّحاد عنه كي يبرّر كلام أدونيس عن استفراده، علماً أنّ من تعرّض لهذا المؤتمر لم يستفرد أدونيس دون بقيّة المشاركين[٣٦]. على أنّ الموقف الجماعي الّذي يقول به أدونيس ليس إلاّ موقف جماعة محدودة (لا تتعدّى العشرين شخصاً) داعمة لاتّفاق أوسلو أكثريّتها فلسطينيّة وينتمي الباقون إلى بلدان أقامت معاهدة سلام مع الكيان الصهيوني أو يقيم حكّامها علاقات وثيقة بالزّعماء الصهاينة ويؤدّون دوراً أساسياً في المفاوضات السرية مع «إسرائيل»[٣٧].

على هذا النّحو يتقدّم أدونيس ويقدّم نفسه باعتداد لافت، في تصريحه وإبهامه، نموذجاً فذاً للمثقّف الوصولي التّابع[٣٨].

٤ ـ يأخذ أدونيس رابعاً على «اتّحاد الكتّاب العرب» إغفاله للكلمة الّتي ألقاها في «مؤتمر غرناطة» مدّعياً أنّه «قلّما يتاح لعربي أن يقول ما قال في مثل هذه اللّقاءات الدّوليّة»؛ فما قاله «يوضح للرأي العالمي ـ الثّقافي، الموقف الإنساني والحضاري الرّفيع الّذي يقفه العرب إزاء الآخر، وبخاصّة اليهودي، من جهة، وموقف إسرائيل العدواني، الطّغياني، غير الإنساني، وغير الحضاري، من جهة ثانية»[٣٩].

---

(٣٤) حين لا يفوت النّاظر الموضوعي في أوضاع م.ت.ف. أن يرى فيها نظاماً مماثلاً للأنظمة العربيّة السّائدة، إن لم يكن أسوأ من العديد فيها، فإنّه لا يفوته العجب مما يعلنه أدونيس هنا وما مارسه في غرناطة مقابل ما كان قد أخذه على «ضمير الغرب» من أنّه لم ينتصر «للإنسان العربي الّذي يفتقر إلى أبسط حقوقه في جميع الأنظمة العربية تقريباً. بل انتصر دائماً للأنظمة وساندها وساعد في ترسيخ كلّ ما يحول دون قيام حكم ديمقراطي....» إلخ. («وجهة نظر في حرب الخليج: الصّلاة والسّيف».. ذكر سابقاً) أم أنّ «العرب» لا «ضمير» عندهم؟ وهل هم كذلك بدون ذاكرة أو بدون مبادئ؟ ولكن كيف تعرّف الانتهازية؟

(٣٥) المرجع السّابق.

(٣٦) راجع «استنكار لقاء مثقّفين عرب مع صهاينة» ذكر سابقاً.

(٣٧) «مذكّرات محمود عبّاس (أبو مازن)... طريق أوسلو (١٤)» ذكر سابقاً.

(٣٨) لعلّ هذه التّبعية للأنظمة والسّلطات القائمة هي القاسم المشترك بينه وبين بعض الكتّاب الّذي انتقدوا موقف الأمانة العامة لاتّحاد الأدباء والكتّاب العرب منه، أمثال علي حرب الّذي لا يكتفي بالمغالطات الفظّة («المثقّفون وجه آخر لعملة الأنظمة والسّلطة... وكما أدّى شعار التّحرير والمقاومة إلى تكريس الاحتلال الإسرائيلي سيؤدّي شعار مقاومة «التّطابع» حتماً إلى الإسراع فيه..») والتّأويلات الخاطئة («إنّ القول بالتحصّن الثّقافي بعد الفشل العسكري والسّياسي يعني أنّ الثّقافة العربيّة ضعيفة خاوية عاجزة....! وأصحاب مقولة الغزو الثّقافي يحكمون على الثّقافة العربيّة بالإعدام وعلى الفكر العربي بالعقم والجدب...!») بل يمضي إلى تأكيد ارتهانه للسلطة السّياسيّة الحاكمة بقوله: «لا يعني ذلك أنّني أسوغ أو أدعو إلى الاتصال بكتّاب إسرائيليين. فأنا في هذا الشّأن تحديداً التزم الموقف الّذي تقرّره السّلطة السّياسية في بلدي»... («أولى باتّحادات الكتّاب مراجعة الموقف والنّقد» النّهار بيروت ١٩٩٤/٣/٣١). وقد أدلى فخري قعوار الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب بتصريح في ١٩٩٤/٤/١٠ أرسله إلى النّهار آملاً نشره كردّ على مقال علي حرب، وقد صدر في عدد الصحيفة في ١٩٩٤/٤/١٢ على أنه أُسقطت منه ثلاث فقرات على الأقلّ من النّظام الدّاخلي للاتّحاد يستشهد بها قعوار ويبني عليها ردّه وتوضيح موقفه من أدونيس والتّطبيع الثّقافي. والأرجح أن هذا الإسقاط ليس نتيجة خطأ مطبعي، بقدر ما هو نتيجة خطّ إعلامي وسياسي، وهو واقع في وسط العمود الثّاني من الردّ المنشور بين كلمتي «تحقيق» و«علاقات» كما يبيّن ذلك النّص الأصلي في ما يلي:

«... من أجل تحقيق الوحدة العربيّة.

المساهمة في النّضال لتحرير فلسطين والعمل على مساعدة الثّورة الفلسطينيّة.

محاربة الحركات العنصريّة، وعلى رأسها الصهيونية، ومقاومة كلّ الدّعوات للتعايش مع الكيان الصهيوني أو الاعتراف به، واعتبار ذلك خيانة قوميّة.

الإسهام في النّضال ضدّ الإمبرياليّة العالميّة باعتبارها معادية لمطامح الشّعوب ومصالحها.

العمل على تعزيز علاقات التّعاون...».

(٣٩) «بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، ص ١٠٩.

إذا كان التعرّض لـ «دولية» اللّقاء قد تمّ آنفاً، والعودة إلى الكلمات الّتي يصعب إحصاؤها في المحافل والهيئات الدّولية إن في الجمعية العامّة لمنظّمة الأمم المتّحدة أو في مجلس الأمن أو في مؤتمرات دول عدم الانحياز.. كافية لدحض ادّعاء أدونيس بالفرصة «النادرة» الّتي وفّرها مؤتمر «غرناطة» لعربي أن يقول ماقاله، فإنّ النّظر في هذه الكلمة لا يؤكّد هذا الدّحض وحسب، بل يؤكّد كذلك تمويه أدونيس وإغفاله للحقيقة. فليس في الكلمة تعرّض لأي موقف من مواقف «إسرائيل» العدوانيّة والطغيانيّة واللاّإنسانيّة، بدءاً من كيانها الاستيطاني وصولاً إلى توسّعه واحتلاله وضمّه للأراضي العربيّة وشنّه حرباً يوميّة على المواطنين العرب في فلسطين ولبنان بشكل خاصّ. وإن كان أدونيس يعتبر الإلماع إلى القرون الوسطى العربيّة ـ الإسلاميّة دليلاً على الموقف الإنساني الحضاري الرّفيع للعرب تجاه اليهود خاصّة، فبئس هذا الدّليل حين يستثير مواقف النّبي محمّد من يهود يثرب ومحاربته ليهود خيبر، والمواقف المعادية لهم وللمسيحيين في القرآن والحروب الطّاحنة الّتي شنّها هو وأنصاره وخلفاؤه بعده على هؤلاء وأولئك. بل إنّ الفرصة التي أتاحها هذا «اللّقاء الدّولي» لطرح القضايا الثّقافية العربيّة الحيويّة الّتي يفترضها التأمّل في «السّلام وما بعده» أو «الانتقال من ثقافة الحرب إلى ثقافة السّلام»[٤٠] لم تستغلّ على الإطلاق. فلم تطرح ظواهر ثقافة القهر والتسلّط والهيمنة القائمة في المنطقة العربيّة وضرورة استبدالها بثقافة الحقّ والعدل والمساواة الّتي تدّعي الهيئة الدّوليّة المنظّمة لمؤتمر غرناطة تبنّيها. ولم تطرح شروط هذه الثّقافة من ضمان التّعليم في مراحله المختلفة وتوفير مستلزماته،

**ليس في كلمة أدونيس الغرناطية تعرّض لأيّ موقف من مواقف «إسرائيل» العدوانية.**

وحريّة البحث والكتابة والنّشر وتأمين مقتضياتها، وقبل هذا كلّه تأمين الضرورات الأولى للعيش الإنساني من مسكن لا يُقصف أو ينسف ومياه لا تحوَّل أو تسرق وأرض لا تصادر أو تحرق ومدرسة أو جامعة لا تغلق أو يعتقل أو يطرد طلاّبها... وهذا كلّه لا يختصّ بالفلسطينيين واللّبنانيين وحدهم بل يتعلّق أيضاً بالعراقيين، بقدر ما ينتمي هؤلاء إلى المنطقة العربيّة المعنيّة بـ «السّلام» موضوع التأمّل والبحث، وبقدر ما تشكّل الحضارة التاريخية لبلدهم والمساهمات الإبداعيّة الرّاقية لفنّانيهم وشعرائهم وأدبائهم ومفكّريهم مكوّناً أساسياً من مكوّنات «الثّقافة التركيبيّة» لهذه المنطقة كما تعلن الفقرة الأولى من «كلمة غرناطة». كان يجدر بأدونيس الّذي يؤكّد: «وقّعت وأوقع جميع العرائض الّتي تدعو إلى فكّ الحصار عن الشّعب العراقي. وأدعو وأعمل، باستمرار من أجل ذلك»[٤١] أن يطالب ـ بعد أن فاته ذلك في مقالة «الصّلاة والسّيف أو الدّيمقراطيّة المتوحّشة» ـ بوقف حرب التّجويع والقهر والقتل الّتي لم يتوقّف «التّحالف الأميركي» عن شنّها على العراق منذ كانون الثّاني ١٩٩١، وبرفع الحصار عن ليبيا المفروض عليها منذ آذار ١٩٩٢... كما كان يجدر به وهو الذي يأخذ على «الوعي الغربي» عدم اهتمامه بحقوق الأكراد في العراق وعدم مدافعته عن «حقوق ما يقرب من مليون عراقي شرّدتهم ديكتاتورية صدّام حسين، وبينهم من شرّدوا بحجّة أن أصولهم غير عربيّة»[٤٢] أن يفضح ـ على الأقلّ ـ تحويل المنطقة الشّمالية من العراق الّتي حظرها «التّحالف الأميركي» على الطّيران العراقي وجعلها خارج السّلطة الفعليّة للدولة العراقيّة، إلى مسرح للعمليّات العسكريّة التّركيّة الجوّية والبريّة الواسعة ضدّ الأكراد الّذين يسقطون بالمئات على مرأى ومسمع العالم أجمع وخاصةً قواعد قوّات «التّحالف الأميركي» في تركيا[٤٣]. لكن أدونيس عوضاً عن ذلك يمضي إلى سؤال الكيان الصهيوني عن الزّواج المختلط والتّعليم المفتوح وتوزير غير اليهود فيه، بحثاً عن تمازج وتنوّع ثقافيين لا يجد ما يجسّدهما لدى العرب إلاّ القرون الوسطى الإسلاميّة...! لقد أشير أعلاه إلى بؤس هذا التّمثيل ومغزاه المباشر، والجدير بالإضافة هنا أنّ هذه الأسئلة لا تحرج الكيان الإسرائيلي بل إنّها على العكس من ذلك تريحه. فعدا عن كونها تغيّب الأسئلة الحقيقيّة الّتي تفضح عنصريته الاستيطانيّة العدوانيّة فإنّها تجعله، مقارنة بالدول العربيّة القائمة في المنطقة الجغرافيّة الواحدة، أفضل من معظمها إن لم يكن أفضل منها جميعاً. فليس هناك بين هذه الدّول الّتي تأخذ معظمها بالشّريعة الإسلاميّة في قوانينها المدنيّة واحدة ـ باستثناء تونس؟ ـ تبيح زواجاً

---

(٤٠) راجع الهامش (١٤) و (١٥).

(٤١) أدونيس: «حول قضايانا الرّاهنة» ذكر سابقاً، ص ٤.

(٤٢) «وجهة نظر في حرب الخليج: الصّلاة والسّيف»... ذكر سابقاً.

(٤٣) وعلى مرأى ومسمع من دانيال ميتران، زوجة رئيس الجمهورية الفرنسيّة ورئيسة «جمعية الصداقة الكرديّة ـ الفرنسيّة»، الّتي لم تتردّد في زيارة المنطقة الشّمالية من العراق تعبيراً عن تضامنها مع الأكراد فيها منتهكة بذلك الأصول الدّبلوماسيّة بدخول الأرض العراقية بطريقة غير شرعيّة، والمبادئ السّياسيّة الّتي تدعي التحرّك باسمها حين تقوم بذلك غداة «حرب الخليج الثّانية» وفي ظلّ مضاعفاتها التدميريّة على العراق وانطلاقاً من تركيا بالذّات الّتي لم تثر أي اهتمام يذكر من قبلها عمليات الإبادة التي تشنّها حكومتها ضدّ الأكراد في العراق وفي تركيا نفسها (يشير آخر التقارير الصحفية إلى إخلاء الجيش التركي ١٥٠٠ قرية جنوب شرق تركيا وإحراقها وتهجير ١,٥ مليون شخص من منازلهم وقيامه بعمليات خطف واعتقال وتعذيب على نطاق واسع... «انتهاكات واسعة للحقوق في تركيا/ إحراق ١٥٠٠ قرية وتهجير ١,٥ مليون» **السّفير** بيروت، ١٩٩٤/١٠/٢٥؛ ص ١٢).

مختلطاً بين مسلمة وغير مسلم، بل إنّ وضع المرأة فيها إجمالاً ـ وهذا أهمّ بكثير من الزّواج المختلط ـ لا يعرف المستوى المتقدّم الّذي يعرفه في الكيان الصهيوني من حيث الحريّات المتاحة لها ومساواتها بالرّجل.. فيما يبلغ وضع المرأة في بعض هذه الدّول كالسعودية مثلاً حدّاً من الحرمان والتمييز ينزع منها أبسط حقوقها الإنسانية! ولا يبدو أنّ التّعليم في الدّول المذكورة أكثر انفتاحاً منه في هذا الكيان، بل إنّ بعضها ـ وهذا أهمّ من الانفتاح ـ لا يتوفّر فيه الحدّ الأدنى من متطلبات التّعليم بدءاً من إلزاميّة مراحله الأولى وصولاً إلى تأمين الاختصاصات العليا الّتي لا يجد الكيان الصهيوني منافساً جدياً له فيها. أمّا مسألة توزير غير اليهودي فلا يسأل عنها نظام صهيوني عنصري تعريفاً، يمكنه أن يجد في صهيونيته ما يبرّر ذلك في الوقت الّذي يقدّم نفسه على النّمط الدّيمقراطي اللّيبرالي الغربي، فلا يترك المجال مفتوحاً أمام مثل هذا الاحتمال (توزير غير يهودي) وحسب وإنّما يقدّم كذلك، وعلى الأخصّ، نظاماً سياسياً يتمّ فيه تداول السّلطة بين تحالف حزبيّه الكبيرين (العمل والليكود) دون خلل يذكر في اشتغال الدّولة وأجهزتها والنّظام الاجتماعي ومؤسّساته، بينما لا تقوم الصراعات الدّموية بين الدّول العربيّة (بدءاً من المغرب العربي بين الجزائر والمغرب وصولاً إلى الخليج بين العراق والكويت والسّعودية...) وحسب، بل تحتدم هذه الصّراعات داخل هذه الدّول حروباً أهليّة مرعبة (من الجزائر إلى اليمن مروراً بلبنان...) أيضاً!

هكذا بعد أن يقدّم أدونيس الكيان الصهيوني دولة مماثلة لأي دولة أخرى في المنطقة العربيّة في انتمائها الجغرافي، يطرح عليه أسئلة تبيّن تقدّمه وتفوّقه على الدّول الأخرى في هذه المنطقة ثقافياً ـ بعد تفوّقه العسكري والسّياسي ـ ... من حيث كونه يستجيب لخصائصها الثقافيّة المميّزة أفضل من أيّ منها، فيبدي بذلك عن أصالة انتماء تقصر عنها جميع الدّول الأخرى، كما يلبّي شروط ومستلزمات «السّلام» أفضل منها، خاصّة وأنّ من مستلزمات هذا

**«ظلاميّة وغباء وانحيازية عمياء» تَسِمُ الثقافة العربية، وتقدّمٌ وديموقراطية يسمّان الكيان الصهيوني!**

«السّلام» ثقافياً «إعادة ابتكار الأفكار والمفهومات...»[٤٤]. وإذا كانت المقارنة الّتي تثيرها أسئلة أدونيس بين وضع الكيان الإسرائيلي والدّول العربيّة تترك مجالاً للشكّ في ذلك فإنّ بيانه التّوضيحي يقطع هذا الشكّ باليقين حين يرى أن الظّلاميّة والضّغينة وعقليّة الدسّ والاتّهام، والغباء والانحيازيّة الإيديولوجيّة الشخصيّة المسكينة والعمياء هي الّتي تسود الجانب الأكبر من الحياة الثّقافيّة العربيّة[٤٥]. بناء على ذلك لا يمكن من ثقافة كهذه توقُّعُ «إعادة الابتكار» الّتي يتطلّبها السّلام ناهيك بـ «الابتكار المتواصل» الّذي تفترضه الهويّة كما تنتهي «كلمة غرناطة» إلى تأكيده.

هكذا تتكشّف كلمة أدونيس عن ابتكار لإطار طريف توضع فيه صورة الكيان الصهيوني ثقافياً فيبدو فيها متحرراً متقدّماً ديمقراطياً إزاء الظّلاميّة والغباء والانحيازية العمياء الّتي تَسِمُ الثّقافة العربيّة، وهذا ـ على الأرجح ـ ما لم يقله عربي في لقاء «دولي» من قبل. ربّما كان هذا هو المقصود من قول أدونيس: «كان في أساس نشاطي الفكري في أوروبّا والعالم، أن أعطي للثقافة العربيّة وجهاً إنسانياً، محاوراً ومتفتّحاً على الآخر خاصّة إزاء الصّورة المشوّهة والكريهة الّتي يعطيها لها أعداؤها... ومن هنا حرصي الدّائم على حضور المؤتمرات التي أُدعى إليها ويتاح لي فيها أن أبرز الوجه الحضاري المضيء، للثقافة العربيّة (...) ولم يكن حضوري **مؤتمر غرناطة**، ومهرجان روتردام الشّعري، تمثيلاً لا حصراً، إلاّ توكيداً لهذا الحرص»[٤٦]. فليست تصريحاته إلاّ نوعاً من التّمويه والتّزييف لحقيقة مواقفه والدّور الّذي يؤدّيه عبرها. تبيّن هذه المواقف بالرّغم من نقده المتكرّر للتقليدي والاتباعي وادعائه بأنّ الدّين «يحول دون حريّة العقل والفكر، ويحول استتباعاً دون التقدّم»[٤٧] عن نظرة تقليديّة بل رجعيّة ومفعمة بالفكرويّة الدّينية[٤٨]. كما تبيّن الدّور الّذي يؤدّيه، بالرّغم من

---

(٤٤) «نصّ الكلمة الّتي ألقاها أدونيس في مؤتمر غرناطة» ذكر سابقاً.

(٤٥) «بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، ص ١٠٩.

(٤٦) أدونيس: «حول قضايانا الرّاهنة» ذكر سابقاً، ص ٣... علماً أنّ «مهرجان روتردام الشّعري» عقد أواخر شهر حزيران ١٩٨٨، وشارك خلاله أدونيس «في أمسية قراءات شعريّة إسرائيليّة، قدّم خلالها عدد من الشّعراء الإسرائيليين، العرب واليهود بعض قصائدهم...» كما ورد في مجلة **لقاء** الصّادرة في فلسطين المحتلّة بالعبريّة والعربيّة في عددها المزدوج ١٠/١١/ خريف ـ شتاء ١٩٨٨. وتذكر الشّاعرة العبرية داليا رابيكوفيتش للمحرّر الأدبي لصحيفة **معاريف** (الصادرة بالعبرية في فلسطين المحتلّة في ١٩٨٨/٩/٩) أنّ أدونيس «جلس بيننا أربع ساعات وأصغى. ولم نحسّ بوجود أية معارضة لديه لسماع شعرنا (...) كان أدونيس المشترك غير الإسرائيلي الوحيد. وأعتقد أنّه لم يفهم كثيراً مما قرأناه. وأمضى هذا الوقت الطّويل بيننا بدافع [؟] من الاحترام. وقد قرأ بنفسه قصيدة له بالعربية» (عن **المحرّر** باريس، العدد ٤٥٦ ٢٨ كانون الثّاني ١٩٨٩). هكذا في غياب معلومات دقيقة عن المهرجان المذكور وأمسياته وموقع الشّعر العربي فيه والشّعراء المشاركين وقصائد «الأمسية الإسرائيلية»... لا يمكن معرفة ما إذا كانت قصيدة أدونيس في روتردام جاءت على النّمط نفسه وأدّت الدّور ذاته لـ «كلمة غرناطة». إنّما يبدو واضحاً أنّ محاولات أدونيس التقرّب من الصهاينة قديمة، وأنّها ليست جميعها معروفة.

(٤٧) «وجهة نظر في حرب الخليج: الصّلاة والسّيف...» ذكر سابقاً.

(٤٨) المرجع السّابق.

ادّعائه «أنّ العرب اليوم فيما يعبّرون عن نقمتهم على الغرب ويقاومونه حيث استطاعوا فإنّهم يحاربون أنظمتهم العربيّة أيضاً بالقوّة نفسها وبالحيويّة نفسها»، عن تبعية لأهداف الامبرياليّة الأميركيّة والتحاق بأشدّ الأنظمة العربيّة ارتباطاً بها في أكثر الفترات التاريخيّة للمنطقة العربيّة حرجاً وإزاء أكثر قضاياها حيوية وجوهريّة.

فأن تكون رقبة العربي تحت سكّين الجلاّد الصّهيوني وهو يسأله عن الزّواج المختلط؛ وأن تكون جبهة العربي تحت حذاء المحتلّ الصهيوني وهو يسأله عن التّعليم المفتوح؛ بل أن يجد هذا العربيّ بين اغتصاب أرضه وسرقة مياهه وانتهاك سمائه وقتل أبنائه وهدم بيته وتهديد عيشه ووجوده بأحدث الأسلحة والتّقنيّات الأميركيّة فتكاً ودماراً مع ترسانة نوويّة جاهزة في ديمونة[٤٩]... متّسعاً جغرافياً كافياً كي ينشد شعراً في روتردام ويحاضر في غرناطة حرصاً على حوار عميق أوضحَ النظرُ في «كلمة غرناطة» حقيقة أبعاده، مع هذا الصهيوني نفسه ـ فأمر مثير للسخط والاشمئزاز. ومع ذلك يتخطّى أدونيس هذا الوضع... فيتّهم «اتّحاد الكتّاب العرب» بالتّمويه والتّضليل واللاّموضوعيّة الّتي يمارسها جميعاً هو نفسه. بل يبلغ به الأمر رفض الدّخول في نقاش مع «الاتّحاد»: «لا نقاش مع الافتراء، والحقد، والجهل»[٥٠]... في حين اتّصفت مداخلات أمين عام الاتّحاد المذكور بتواضع ورزانة ودماثة خلق جعلته يؤكّد تقديره «لإبداعات أدونيس» واحترامه لهذه الإبداعات وإن لم تكن المسألة المطروحة «مسألة هذا الإبداع»[٥١]، ويغفل «نقاطاً في النّظام الدّاخلي للاتّحاد تقول بأنّ هذا النّوع من اللّقاءات [بين كتّاب عرب وكتّاب إسرائيليين كما هو الحال في غرناطة] يضع المشاركين [العرب] فيه في مصاف الخونة، [وأنا، أي قعوار] لم أورد هذا النصّ احتراماً له (لأدونيس)...»[٥٢].

هكذا ينصت أدونيس طويلاً للصهاينة، ويلقي عليهم أسئلته المبتكرة... بغية إرضائهم، ويرفض الحوار مع الكتّاب العرب[٥٣] ويصبّ عليهم وعلى الثقافة العربيّة سيلاً من الافتراءات. فإذا كان تبيان الحقيقة واحترام أصدقائها يشفّان عن تزييف، وإذا كان الزّحف وراء الأنظمة التّابعة والمستسلمة ينقلب إلى ترسيخ بُعْدِ الحرية في التّاريخ العربي القديم والحديث (كما ينتهي بيان أدونيس إلى ذكره)، فإنّ النّموذج الجديد لمثقّف الانحطاط ينمّ عن كفاءات طريفة يصعب إنكار ابتكاريتها أو ابتداعيتها. فلم يعد المثقّف التّابع دمية متحرّكة تتلاعب بخيوطها الّتي لا تكاد تُرى وتوجّه حركاتها التهريجيّة قوى مستغلّة ومتسلّطة محليّة أو عالميّة. بل لقد أصبح هذا المثقّف مع أدونيس، ومع التقدّم التكنولوجي الملحوظ في العالم، دمية ذاتيّة الحركة تنظّم حركاتها وتسعى في مواقفها بدون حاجة إلى خيوط تحرّكها أو أصابع توجّهها، لتؤدّي دورهاالمطلوب من ترويج وتهريج وسباب...

إنّ هذا المثقّف ـ الدّمية، مسخ الحداثة (وما بعدها؟)، يثير الخوف والقلق بقدر ما يمثّل من اتّجاه يقوى ويترسّخ في موازاة أوضاع اجتماعيّة ـ سياسيّة تتداعى وتتردّى. ما يخيف فعلاً هو ما تشير إليه هذه الظّاهرة من تحوّل نخبة المثقّفين العرب من التّنافس على الاضطلاع بدور القادة والروّاد لشعبهم في نضاله التحرّري، إلى التهافت على خدمة أنظمة القمع والاستغلال والتّبعية..؛ من نخبة طليعيّة تبقى رهان الأمّة التّاريخي على تخطّي محنها وتحقيق طموحاتها إلى مجموعة خلفيّة تشكّل عبئاً على الأمّة يعوقها ورزيئة تزيد من همّها وغمّها. ولعلّ هذا التحوّل كان أحد الشّروط الرئيسية لانتعاش الحركات الأصوليّة والسّلفية الدّينية؛ فتخلّي النّخبة الواعية عن دورها التاريخي أخلى السّاحة لقوى أخرى سواها تقدّمت لتتصدّر بدلاً منها خطّ المواجهة والصّراع ضدّ أعداء الشّعب والأمّة، مع كلّ الالتباسات والتّناقضات الّتي ترافق ذلك، وليس التخلّف والظلاميّة اللّذان يشكو منهما أدونيس[٥٤] إلاّ بعضاً منها. هكذا يرتدّ المنهج التّلفيقي في أذاه على أصحابه بقدر ما يرتدّ على الثّقافة والمجتمع، وتصبح الأمّة مزدوجة الفجيعة في مؤخّرتها كما في مقدّمتها، مفتوحة على احتمالات من التّردّي شتّى ليست الحرب الأهليّة الّتي تنهش اليوم بعض أنحائها إلاّ واحداً منها.

**بيروت**

---

(٤٩) لم يحل امتناع الكيان الصهيوني عن الانضمام إلى معاهدة الوكالة الدّولية للطاقة النوويّة ورفضه إخضاع ترسانته المذكورة لتفتيش ورقابة هذه الوكالة للتأكد من أهدافها السّلميّة دون اتخاذها مؤخراً قراراً بتقديم المساعدات التقنية له؛ في حين كانت الولايات المتحدة الأميركيّة تقود حملة دعائيّة ودبلوماسيّة عالميّة مركّزة وتمارس ضغوطاً هائلة على كوريا الشماليّة لإجبارها على تعديل برامجها النوويّة وإخضاع معاملها النوويّة لرقابة الوكالة الدّولية للطاقة للتأكد من أغراضها السّلميّة!

(٥٠) «بيان من الشّاعر أدونيس» ذكر سابقاً، ص ١٠٩.

(٥١) «الموقف من أدونيس الّذي يشارك»... ذكر سابقاً.

(٥٢) «فخري قعوار الأمين الهادئ الملتزم»... ذكر سابقاً.

(٥٣) من الجدير بالذكر هنا أنّ رئيس رابطة الكتّاب العرب الأردنيين «أكّد ضرورة دعوة أدونيس إلى عمّان كي نجادله ونحاوره. وأنا أرغب في أن أعتقد أنّه يملك الشجاعة الأدبية للمجيء إلى هنا والدّفاع عن قناعاته»... (محمّد سعيد مضيّة: «أدونيس وغرناطة وعمّان» ذكر سابقاً، ص ١١٠) دون أن تحظى دعوته بأي جواب.

(٥٤) «وجهة نظر في حرب الخليج: «الصّلاة والسّيف...» ذكر سابقاً.